حماة الإسلام



الجزء الثاني

الطبعة الثالثة

طبع بمطبعة التجارة الكبرى بأول شارع [illegible]
لصاحبها : مصطفى محمد
١٣٥١ [illegible]

عصته العسكر ونابذته قواده، وكان جيشه فوق المائة ... فلم يغن عنه شيئ وتولى أمره الخذلان حتى انهزم وهرب وقتل فى قرية أبى صير ... ى الغربية على الشاطىء الغربى للنيل الشرقى وهو آخر الخلفاء فى هذه الدوله .

ولا بد لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شيء حفظه التاريخ لهذه الخلافة وهو ان بنى أمية وان كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل فى القضاء وحفظ الأمن والراحة (وأنى لنا بمثل تلك الأيام) فان الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم، والأحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول صلى الله عليه وسلم فرقت الأمة الى مذاهب مختلفة كالخوارج والمعتزلة والجبرية وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية . وأبعدتها ... حدها وجعلتها وقام الملك أخيرا على العصبية فانحرف عن العدالة العامه والعلم الدينى وهما أقوى أركان الخلافه ، وانتشر التفرق فى البلاد الاسلامية ولم يجمع القاده أ ... الناس على عقيدة واحدة بل تركوهم مع هذا السيل الجارف

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة وانقسمت الى خلافتين : خلافة عباسية فى دار السلام، و ... أموية بالأندلس . ... الأولى الامام السفاح ... الامام عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الأموى الذى فر من السفاح ولجأ الى قبيلة زناتة أعظم قبائل أفريقيا ، ونحن ذاكرون ... خلفائها الذين هم خير خلفاء، وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم ... سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم

ترجمة أبى مسلم الخراسانى

هو عبد الرحمن بن سالم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دولة، أو صاحب دعوة بنى العباس ، أو صاحب الدوله العباسيه ، أو بأمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

اختلفوا فى نسبه فمن قائل انه عربى . ومن قائل انه عجمى ومن قائل انه كردى . وقد قال هو عن نفسه (كفاك خبرى عن نسبى)

ترعرع أديباً ، ونشأ لبيباً ، وكان يشار اليه فى صغره لفرط ذكائه ووفور عقله

ولد فى سنة مائة بأصبهان وكان أبوه قد أوصى به الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين ثم جمع بينه وبين ابراهيم الامام فأقام معه حتى بلغ أشده ، ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يسمى أبا اسحاق) فتسمى (بعبدالرحمن وتكنى بأبى مسلم) . زعموا أن الامام وجد لذلك شيئاً فى الجفر وتحقق أن الأمر لا يتم على يده الا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها ، هو بها أعلم وأخبر

ولعله إذ قدم على الامام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به ، فعقله عنده حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له فى خراسان

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم ، وقصرت أعمارهم فانه ولد سنة مائة والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر دوخ فيها أهل الارض وكان له يوم قتله المنصور ثلاث وثلاثون سنة فهو كالاسكندر الرومى صاحب الفتوحات أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب ، أو سيبويه شيخ العربية ، أو أبى تمام أبى الشعراء ، أو ابراهيم النظام أمير علم الكلام ، وغيرهم ممن لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفاً لاعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم

كان أبو مسلم جميلا قصيرا أسمر حلوا نقى البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالما بالأمور لم ير ضاحكا ولا مازحاً إلا فى وقته ولزومه ، ولا يكاد يعضب فى شىء من أحواله . تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور ، وتنزل به الحوادث الجسام فلم ير مكتئباً . وإذا غضب لم يستفزه الغضب . كثير الغيرة شديد البطش شجاعاً فاتكا ذا عقل ورأى وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة والنعوت الشريفة هيأت هذا المقدام الهمام لأن تتعلق به دعوة بنى العباس ، ويكون به إقامة دولتهم وابادة دولة بنى أمية

سئل أبو مسلم فقيل له بم نلت ماأنت فيه من القهر للأعداء ؟ فقال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكتمان ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وسامحت المقادير والأحكام حتى بلغت غاية همتي ، وأدركت نهاية بغيتي .

ومما يدل على علو همته أنه ورد حال الدعوى (نيسابور) ليلا على حمار وليس معه آدمي فقصد دار (الدهقان) فدق عليه الباب فمرع أصحابه وخرجوا اليه فقال لهم : قولوا للدهقان إن أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة فقالوا للدهقان فسألهم فى أى زى وأى عده هو ؟ فقالوا وحده فى أدون زى فسكت ساعة ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نيسابور قيل له خذ ماتريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال . (إن له عند أبى مسلم يدا) ثم أتته هداياه فردها ولم يتعرض لشيء له ولا لأتباعه

ومن نوادره أنه كان يشتغل عند خراز بالكوفة فبينما يخرز شيئا رأى الناس يتعادون فقال ماالذى بهم ؟ قالوا فيل دخل الكوفة فقال : وأى فى دخل فيل الكوفه من العجب ؟ العجب فى أقلب دوله واقيم أخرى

بدأت الدعوة العباسيه سنة اثنتين ومائة على ماالستقصيناه وكان أول ظهورها بخراسان (بلدة أبى مسلم) وكأنما قارنها فى المولد لتسامعا وتساويه

اختلفوا فى أول من قدم خراسان فمن قائل ان ميسره وجه رسله بالدعوة من العراق اليها ثم وشى بهم عمرو بن بحير بن ورقاء السعدى الى سعيد حذيفة عاملها ، فقال إن هاهنا قوما ظهر منهم كلام فى الخلافه وأعلن بهم ، فسألوهم فقالوا نحن من التجار وان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم

ومن قائل ان أول من دخل خراسان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمه وأبو محمد الصادق وغيرهم سنه سبعة ومائه ومن قائل انهم دعاة (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) . وفيهم زياد أبو محمد مولى همدان . وقد اتفق أصحاب الروايتين أن ذلك وقع فى هذه السنه وفى ولاية أسد على خراسان

أسماء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية وأطعموا الطعام على حب بنى العباس ، وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس حتى بلغ أمرهم أسداً فأحضر زياداً وقال له ماالذى بلغنى عنك ؟ قال : الباطل إنما قدمت إلى تجارة وفرقت مالى على الناس . فاذا اجتمع خرجت . فأمره بالخروج فلم يخرج وعاد الى أمره فخاف منه أسد . وأحضره وقتله بالسيف مع عشره من أصحابه قالوا ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال (الحمد لله الذى صدق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل) ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد واليا على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ودعا الى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع اليه القوم وأطاعوه ، ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعاهم للفجور بنساء بعض وقال ان ذلك بأمر محمد بن على ، فظفر به أسد والى خراسان وسمل عينيه وقطع لسانه ، فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم فبعثوا اليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم فصرفه الى خراسان وأرسل معه كتابا مختوما ففضوه فلم ير فيه الا « بسم الله الرحمن الرحيم » فعظم عليهم ذلك وعلموا أنهم خالفوه وبعث للنقباء أيضا بعصى مفضضة بعضها بحديد وبعضها بالنحاس وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهى إشارة لما كانوا عليه من مخالفته ورجوعهم لطاعته (١)

ثم جمعوا أمرهم وقاموا بالدعوة وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية وهاجت عليهم الفتنة ، وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس وأخذ ما كان بعمان من الأموال وأقبل الى دمشق يلعن الوليد ويرميه بالكفر

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وهى أول سنة الأعمال الجسيمة توجه فيها سليمان بن كثير ومعه أبو مسلم وجماعة من الشيعة إلى مكة والتقوا بابراهيم الامام ودفعوا اليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع ، فكتب كتابا لأبى مسلم يأمره فيه بالعمل ووجهه الخراسانى ، وعمره اذ ذاك نحوا من أربع وعشرين سنة قال فى كتابه للأصحاب والشيعة

---

(١) العصا المفضضة بالنحاس أو الحديد هى علامة النصب الآن فى طرق الصوفية ولعلها من هنا أحدثت

أما بعد فانى قد أمرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا

أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك فكبر على شيوخ الشيعة قبول امرته لصغر سنه ، وخرج بعضهم الى مكة ليلاقوا الامام فاذا به مجمع على رأيه على أبى مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه ، ثم كتب الى أبى مسلم انك رجل منا آل البيت احفظ وصيتى : أنظر هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم فان الله لا تم هذا الأمر الا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم وأما مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ، وان استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعص عليه واذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى)

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام، ولم يبق فلسما الاقلبه على بنى أمية ولا بلد الا أوحشه منهم، فغير النوايا وبدل الضمائر والافكار بمابه وأظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الامور فلم تلبث الا وقد لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبنى العباس وجاءت من كل الارجاء والمواقع ليقع فى ملكه ما يريد

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء وبث الدعاة وبرز للمعالنة والمباراة، فأزال ملك أعدائه عن مستقره ، وثبت ملك أوليائه فى نصابه ، فسمى الله صدورا وأدرك بسيفه ثارا فتح البلاد وأقام أصل الدولة وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها ، وأقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ، ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها ويموتون عليها

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود يروون حديثاً مأثورا معناه (صفة الدين يفتحون عمورية ويطهرون عليها ويقتلون مقاتلتها شعورهم شعور النساء وثيابهم ثياب الرهبان) وهم كذلك كانوا أصحاب صدور سليمة وقلوب باسلة لم تفسدها الأهواء ولم تخامرها الادواء ولم تخترقها البدع وهم خير جند لخير قائد ، فكأنهم لم يخلقوا الا لقلب الدول وتأييد السلطان

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة فكتب اليه ابراهيم الامام يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة مع النقباء ،

فلما وصلوا قومس (١) وافاه كتاب الامام يقول له فيه : انى قد بعثت اليك راية النصر فارجع من حيث لقيك كتابى ووجه الى قحطبة بما معك يوافينى ، فانصرف أبو مسلم الى خراسان وذهب قحطبة الى الامام بما معه من الأموال والعروض ، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها مفنون (بلدة بمرو) ، ولبس السواد ، وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ودارت رحى الحرب والقتال وانتقل أمرهم من القوة الى الفعل وأخذت البيعة الى الامام علانية ثم عقد اللواء الذى بعثه الامام اليه الذى يدعى (الظل) والراية التى تدعى (السحاب) وأمر باشعال النيران للشيعة وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاما فقالوا : (الظل والسحاب) يعنى ان السحاب يطبق الأرض وان الأرض كما لا تخلوا من الظل كذلك لا تخلوا من خليفة عباسى الى آخر الدهر

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية . واتته الرجال راجلين وركبانا يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى فتربص بهم مكانه وكان عيد الفطر ، فنصبوا منبرا بالعسكر وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة ، وكانت بنو أمية تبتدىء بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والاقامة مع تغيير كثير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا ففعل ، ثم انصرفوا بعد الصلاة الى طعام فأكلوه وكتب أبو مسلم الى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتابا قال فيه .

الى نصر

أما بعد ، فان الله تبارك أسماؤه عير أقواما فى القرآن فقال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا باهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

---

(١) قومس بالضم وفتح الميم صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل

فتعاظم نصر الكتاب وكسر لهاحدى عبنيه وقال : هذا كتاب ماله جواب ثم وجه أبو مسلم أشياعه مثل مالك بن الهيثم الخزاعي وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بني أمية وجيوشها ، وذهب عبر أولئك الى جهةأخرى فشردوهم عن المواقع والاماكن وقتل من قتل منهم كشيبان الخارجي من أكابر القواد والكرمانى وابنه ودخل أبو مسلم (مرو) وصفت له على يد أبى منصور طلحه بن زريق أحد النقباء ، وكان عالما بالحال ملحنا بالحجه . وهو احد الاثنى عشر نقيبا المنتخبين من السبعين الذين استجابوا الرسول محمد بن على فى اول الامر

ثم دخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة بويع فيها ابو العباس عبدالله بن محمد ابن عبدالله الملقب بالسفاح بعد قبض مروان الحمار على ابراهيم بن محمد الامام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) وكان الامام قد نعى نفسه إلى أهل بيته قبل ذلك وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد وبالسمع والطاعه له وأوصى إلى أبى العباس الملقب بالسفاح بالخلافه . فلما وقف دلك ساروا يقصدوا الكوفة ومع جميعهم فأنزلهم أبو سلمه الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم . (كما تقدم الكلام فى النبذة التاريخية) وجاءت القواد وسلمت عليه بالخلافه ثم لبسوا السلاح وطلبوا خروجه واصطفوا له وأتوا بالدواب فركب بردونا أبلق ودخل دار الامارة ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم وافت الأخبار بهزيمة مروان (بالزاب) ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمةالكبرى وفر الى مصر وقتل

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وهو الملقب بالسفاح فأقر أبا مسلم على خراسان ولا زال بها لا يفارقها الى سنة ست وثلاثين ثم كتب اليه أبو مسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج فأذن له ووافق ذلك طلبا من أبى جعفر المنصور أيضا بالحج فأذن له فلما كانا فى الطريق حمل معه ذكر أبى جعفر لأن أبا مسلم كان

يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق وكانت الذكرى له . ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ثم أتاه خبر موت السفاح فكتب اليه يعزيه ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبامسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقباً وقد غلب عليه سوء الظن حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن فأمضى فيه حكمه وقتله بعد أن استدعاه وأدناه وجالسه مجلساً كثر فيه الأخذ والرد كما سيأتى ذلك فى ترجمته ان شاء الله

موعظة

(قال الامام الفخرى) : لما قدر الله انتقال الملك الى بنى العباس هيأ لهم جميع الأسباب فكان ابراهيم الامام ابن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بالحجاز جالسا على مصلاه مشغولا بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل ، وأهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لايعرفه ولايفرق بين اسمه وشخصه . وانظر الى ابراهيم الامام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لاينفق عليهم مالاولا يعطى أحدهم دابة ولاسلاحا ، بل هم يجبون اليه الأموال ويحملون اليه الخراج فى كل سنة

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان وانقراض ملك بنى أمية كان مروان خليفه مبايعا ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه وأمره يضعف وحبله يضطرب فما زال يضمحل حتى هزم وقتل وأكلت لسانه هرة فتعالى الله عما يشركون اه

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب »

أبو جعفر المنصور

نستفتح الخلافة العباسية باسم هـذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لاسباب : منها أن جماعة المؤرخين قالوا ان بنى العباس فاتحة ، وواسطة ، وخاتمة والفاتحة عندهم المنصور ، والواسطة المأمون ، والخاتمة المعتضد . ومنهـا أن مدة السفاح لم تطل . ومنها أن هـذا الخليفة أحق بالتقديم لانه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين : العلمية ، والحربية

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ، وأدرك جـده ولم يرو عنه وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائه ببئر ميمون مع السحر وهو محرم ، ودفن بمقبرة المعلاه والمسافة بينهما ثلاثه أميال . فمدة خلافته اثنان وعشرون سنه ، ومدة عمره ثلاث وستون سنة

كان أسمر نحيفا خفيف العارضين وقورا كامل العقل جيد المشاركة فى العلم والأدب فقيه النفس فصيحا بليغا مفوها حليماً بالامارة وحروبها مدبرا لامور المملكة

قسم زمانه وساعاته قسمة حكمة ، فكان صدر نهاره الأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدايتهم ، فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فاذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، فاذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه فاذامضى الثلث قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر فخرج للناس فيصلى ثم يدخل ايوانه

وكان لحبه العدل واستقامه أمور المملكة يستقل ذلك ، وقد سمع منه أنه قال : (ماأحوجنى أن يكون على بابى أربعه نفر فاصلا أحده فى الله لومة

لاثم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، وصاحب خراج لا يظلم الرعية ، ثم عض على أصبعه وتأوه ، فقيل ماهو ياأمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب الىّ خبر هؤلاء على الصحة)

نمت فى عصره القوة العلمية فقد عاصر كثيرا من الأئمة الأجلاء : منهم الامام أبو حنيفة ، الامام مالك بن أنس . وكثر تدوين علماء المسلمين فيه العلوم : كالحديث والتفسير ، فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والاوزاعى بالشام وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان الثورى بمكة ، وصنف ابن اسحاق المغازى وابتدأ تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الأئمة فى هذا العصر يعلمون العلوم املاء من حفظهم

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية كاقليدس وكليلة ودمنة ، وكان هو أعلم الناس بالحديث والانساب مشهوراً بطلبه . كان بليغاً لسناً فصيحاً أخرج الأصمعى وغيره أنه صعد المنبر فقال : (الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله الا الله لا شريك له) فقام اليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين اذكر من أنت فى ذكره ، فقال : مرحباً . مرحباً لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وأعوذ بالله أن أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم ، والموعظة منا بدت ، ومن عندنا خرجت ، وأنت ياقائلها فأحلف بالله ماالله أردت وانما أردت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها واهتبلها من الله فانى قد غفرتها وإياكم معشر الناس من أمثالها ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فعاد الى خطبته كأنما يقرؤها من قرطاس

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة ، وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم ، وله من التدبيرات السديدة مايستحق أن يدون ليحتذى به ويؤخذ منه ويقاس عليه

ومن أغرب مايؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته أنه لما أدركته الوفاة قال لابن المهدى : يابنى ان فى بيت المال مالا أخذته العمال من أصحاب الجنايات

على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً . ولقد أفردت كل شيء منه وكتبت عليه أسماء أصحابه فربما كان منهم مايوجب رده اليهم

كان أعلم الناس ببسط أحوال الممالك وترتيب القواعد واقامة ناموس كل شيء . غالب الدهر والأيام حتى كف عاديهما عنه ، وتوطدت أركان الممالك له وعظمت هيبته في النفوس ، ولولا بأسه وشدته مادانت الأمصار اليه بعيدها وقريبها وأصبحت خلافته موطدة الأركان قوية البنيان . فان آل مروان لم تبل رممهم ، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ، والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء

كان حازماً لا يعرف اللهو ولاما نسبه اللهو ولم ير في داره ذلك . قال سلام الابرش كنت أخدم المنصور داخلا وكان من أحسن الناس خلقا في الخلوة بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها . فاذا خرج من المجلس العام اربدّ لونه وكان مع ماوهبه الله من السودد والمجد فقير النفس . فكان يرقع ثوبه ويلبس القميص الخشن (ونعم المتلى)

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت . بطلا لا يهاب عدوه قال يزيد بن عمر بن هبيرة مارأيت رجلا في حرب أوسلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب فجهدنا الجهد فلم ننل من عسكره شيئا وحصرت ومافي رأسي شعرة بيضا . وانقضى الحصار وانس فيها سوداء

يعد مخاطرا من فرط شجاعته حتى قيل انه أخطأ في ثلاث قتل أبي مسلم وهو في جماعة قليلة . وحين خرج الى الشام ، ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ويوم الراوندية ، ولو أصابه سهم لذهب الممالك وغدا الكل أثرا بعد عين . فأماقتله لأبي مسلم وخروجه الى الشام فقد نقض ذلك لبعض الأيام ما أنكر المعجز يوم الراوندية

وصفوة الخبر أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأي أبي مسلم أحاطوا بقصره وقالوا أنت إلهنا . فغضب وقال

يدخلهم الله النار فى طاعتنا ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا ، وحبس رؤساءهم فعمدوا الى نعش فارغ وحملوه كأن به جنازة وقصدوا السجن فألقوه أمامه وكسروه وأخرجوا من فيه وقصدوا القصر ، فخرج بنفسه ماشيا(١) وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينه ، ومازال حتى جيء له بدابة فركبها ، ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها وصار يقاتل قتالا ماروى مثله ويقتل بين يديه ويحميه حتى طفئت الفتنة

فعن أي ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لاندرى . على ان هذه الأمور طالما كانت سببا لضياع البلاد تقوم الثورة المدبرة فتنعقد يد الأمير عن التصرف فيها فتتسع (ومعظم النار من مستصغر الشرر) فضلا عن أن تلم بطرف أجنبى فلا تلبث المدينة أوالمملكة الا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك

وقد كانت هذه الواقعة سبباً لبنائه بغداد لأنه كره الاقامة بالهاشمية فبناها بعد ماأجمعت جماعةالحكماء على فضل مكانها دجلة والفرات محيطان بها ، والميرة تأتى اليها فى دجلة من ديار بكر ومن البحر والهند والصين . وفى الفرات من الرقة والشام وخراسان وبلاد العجم متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل ، وهى مدينة ماركة قالوا انه لم يمت فيها خليفة

ابتدأ فيها سنه خمس وأربعين ومائة وأتمها سنة ست وأربعين ، وجعلها شبه دائرة وقصره فى مركزها قالوا . ليكون قربه من جميع الناس واحد . فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم ، وبلغ من دقة أمره فى حسابها انه تقاضى الواقى لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره)

ثم بنى الرصافة وشيدها

أحاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه ، فأفنت الفرسان وقتلت الانصار ، وغلت يد الخلافة ، وأذاقت الأمه بأس بعضها ، وأتلفت الحصون والملاجىء ، وبددت المعاقل

وكفى بالجيوش الخراسانية التى كانت مع الأمير (إسادسر) أى (الخارج

---

(١) لانه لم يكن فى القصر دابة ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء

بلا سند ولادليل) فقد عظم خطرها ، واستفحل شرها ؛ واشتد الأمر على المنصور ، فان ضريبة جيشه كانت ثلثمائة ألف مقاتل مابين فارس وراجل ولم يهزم اسنادسز حتى قتل فى موقعة واحدة من رجاله سبعون ألفا فى واقعة مشهورة

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جراثيم الفساد أن هجم بالعقوبة وتناسى العفو ، فكان جبروت خلافته شديدا ،ولم تفتح فى مدة خلافته الا « طبرستان » لأن الحروب مع الخوارج غلبت عليه

دخل فى طاعته ممالك الاسلام التى افتتحها الصحابة رضى الله عنهم وبنو أمية إلا الأندلس بقيت بيد أهلها يتقاتلون على الامارة حتى قدم عليهم . فأصبح للاسلام رئيسين يتنازعان السلطة . العباسية فى الشرق ببغداد . والأمويه فى الغرب بالأندلس

ومن فضائل هذا الخليفة أنه وسع المسجد الحرام ممايلى د ر الندوة ، وحصل بينه وبين ملك الروم الفداء واستنقذ أسرى المسلمين ، وحج حجة أغدق فيها على الناس حتى سميت عام الخصب . ووقع فيها بينه وبين رجل من الحديث مافيه مردجر يتقبله منه مع جبروته ولاتأخذه أنفة الملك . وانا ذاكروه ولو طال . فانه مما يطرز بالدرر واللآل

قالوا : حج أبوجعفر وكان يخرج الى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى لايعلم به أحد . فخرج ذات ليلة سحرا وبينما هو يطوف سمع من يقول : اللهم إنى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الظلم ، فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه ثم خرج ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له . ان أمنتنى على نفسى أنبئك فأمنه وأدناه وسأله فقال .

(ياأمير المؤمنين ان الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وما ظهر من البغى والفساد فى الأرض انما هو أنت . قال ويحك كيف يدخلنى الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ؟ قال وهل دخل على أحد من الطمع مادخل عليك ياأمير المؤمنين . ان الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص

والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وصحبة معهم السلاح ، واتخذت وزراء وأعوانا فجرة ان نسيت لم يذكروك ، وان أحسنت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح ، وأمرت أن لايدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف والجائع والعارى ، وماأحد الاوله فى الأموال حق . فلما رآك الذين استخلصتهم وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبى المال ولا تقسمه قالوا قد خان الله فما بالنا لا نخونه ؟ وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك الا ما أرادوا ، ولايخالف أمرهم عامل الا اقصوه حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على الظلم ، ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم ، وامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وانت غافل ، وان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك . وان أرادوا رفع قصة اليك وجدوك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته اليك فان صرح ضرب وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الاسلام وأهله على هذا

كانت بنو أمية لاينتهى اليهم مظلوم الا رفعت مظلمته ، ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الأرض حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى ياأهل الاسلام فيبتدرونه فيرفعون مظلمته الى سلطانهم فتنصف له ، وقد كنت ياأمير المؤمنين أسافر الى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزيره : مالك تبكى لابكت عيناك ؟ فقال أما انى لست أبكى على المصيبة اذ نزلت بى ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب أبكى ، ولئن ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب نادوا فى الناس ان لايلبس ثوبا أحمر الا المظلوم . فكان يركب الفيل فى طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه

هذا ياأمير المؤمنين مشرك بالله تعالى قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه وأنت مؤمن بالله عزوجل وابن عم نبيه الا تغلبك رأفتك

بالمسلمين على شح نفسك ، فانك لاتجمع الاموال الا لواحدة من ثلاثة . ان قلت أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وماله على الأرض مال وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ولايزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ، ولست الذى تعطى ولكن الله تعالى يعطى . وان قلت اجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبرا فيمن كان قبلك ولم يغن عنهم ماجمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك عبدالله بن عباس ما كنت فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد وان قلت اجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها ، فوالله مافوق ما أنت فيه الا منزلة لاتدرك الا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال لا فكيف تصنع بالملك الذى خولك ما أنت فيه من ملك الدنيا ، وهو لايعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الاليم ، وهو الذى يرى منك ماخفى فيك فما تقول اذا انتزع ملك الموت الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئا ؟ فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ثم قال (ليتنى لم أخلق ولم أك شيئا كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس الا خائنا) فقال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين !! قال ومن هم ؟ قال العلماء. قال فروا منى قال هربوا مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقك ولكن افتح الابواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وامنع وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالعدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك .
فقال المنصور : اللهم وفقنى ان أعمل بما قال هذا الرجل

ولا عجب من سكوت أبى جعفر واصغائه لمقال الرجل وطلبه التوفيق فى العمل بما قال لأنه يتحرى الحق من الباطل ويعلم صحة ما يقال له ويميل اليه وهو متسم المعالى ويتضاءل امامه كما سمعت

أكبر فخر للعربى على الشرقى الآن أن يفخر عليه بان فى أهل العرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق وقوله الصدق ؛ وان هؤلاء الملوك لايصدقون

عن النصيحة ، ولا يأنفون منها مادامت عونا لهم على طرق الحق واكتساب الخير ، ولكن كل الدى سمعناه عنهم دون هـذا الموقف الدى ذهبت فيه معانى الخلافة من القهر والقوة والقـدره واستمعت فيـه النصحه بما يجب لهـا من الخضوع والخشوع

واعجب من هدا ماأخرحه عبدالله بن صالح قال . كتب المنصور الى سوار ابن عبـدالله قاضى البصرة بان ينظر فى الأرض التى تخاصم فيها فـلان القائد وفـلان التاحر وان يدفعها الى القائد فامتنـع القاضى وقال انها من حـق التاحر وكتب للمنصور بدلك . فـكتب اليـه . والله الدى لاإله الا هـو لتدفعها الى القائد . فكتب اليه سوار يقول . والله الدى لااله الا هـو لاأخرجها من يده الا بحق فلما جاءه الـكتاب قال ملأتها والله عدلا وصارت قضاتى تردنى الى الحق

لو كان أبو جعفر غـير مغـلول اليدين وكانت الحروب التى باشرها مـع الخوارج عليه فتوحا فى بلاد الغير كان زمنه يعد من أكبر الأزمان فى الفتوح والأعمال الحربيه كما عد أكـبر زمن فى الفتوح العلمى والتقدم فى المعارف . ولـكن قدر الله أن يكون سهمنا بيننا فى تلك المـدة كما قدمناه ودلك من المنازعة عـلى الملك وسمو الآمال اليـه وعـدم دفع الخارجـين عليـه الا بالقوه الغالبة أو يتفرقوا

كانت خزائن أبى جعفر ملآى بانواع الاموال وجيوشه على قدم الاستعداد ، ولولا ذلك ماتمت له الخـلافه وناهيك بوصيته للمهدى وقـوله فيها (انى قد جمعت لك من الاموال مايكفيك لارزاق الجند والنفقات على احتلافها عشر سنين ، فاحتفظ بها فانك لاتزال عزيزا مادام بيت مالك عامراً وأوصيك بأهل بيتك خيرا فان عزك عزهم وانظر مواليـك فانهم مادتك لشدتك واياك والتبذير فان النوائب غير مأمونة ، ولا تتجاوز ماأمر الله به وأعد رجالا بالليل لمعرفـة مايـكون بالنهار ورجالا بالنهار لمعرفة مايـكون بالليل ، وخـذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تبت على بابك وسهل اذنك للناس ووكل بهم عينا غـير نائمة ونفسا غير لاهيه ولا تنم واياك فان أباك لم ينم مذ ولى الخلافة ولادخل عينه الغمض الا وقلبه مستيقظ)

فالمتأمل فى هذه الوصية يدرك ان الأمم الفقيرة لابد أن تسترقها أخصامها بعلة الدين كما هو الواقع وهو أقرب سبب لأن تتملكها أو تستعبدها عداها ، وليس بين الأمة وبين محوها الا أن تقصر يدها فى عدة حرب وقد وقفت اليها خصومها وعلمت منها ذلك ، وان الانقسام والافتراق من شر الأوبئة على عائلة الملك لأنها تبيدها بيدها من غير حاجة لقوة الاعداء

فنسأل الله أن يلم شعثنا ، ويوفقنا لما يريده من خير الدنيا وخير الآخرة ، ويرينا هذه المواقع التى ذكرناها من جهات بغداد وأنهارها غامرة بالعمار والترقى والحضارة والمدنية التى انشت هناك أساسها فى هذه الأيام فى ظل مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الظليل أدام الله سلطانه وملكه وجعله للأمة الاسلامية ذخراً وسياجا يحوطها من آفات الزمان ونوائب الحدثان ويد العدوان آمين

المهدى أبو عبدالله محمد بن المنصور

هو المهدى أبو عبدالله محمد بن المنصور ولد سنة سبع وعشرين ومائة وبويع له بالخلافة فى سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون كما تقدم فى ترجمته) فلما وصل الخبر اليه ببغداد خطب الناس فقال

(ان أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه فقال) .
قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله أحتسب امير المؤمنين وأستعين على خلافة المسلمين) .
أيها الناس اسروا مثل ماتعلنون من طاعتنا نهبكم العافية واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الاصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك . والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والاحسان عليكم

يرى الممعن فى معانى هذه الخطبة شيئاً كثيرا من المنافع والمقاصد الخيرية أظهرت تأثره بالفجيعة وأبانت ان خلافة خلال حنو وانعطاف وان ملكوت الخلافة لم ينسه حق الابوة ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لا تذكر نعمتهم فى جانبه ولا أسوأ من العقوق والعياذ بالله

نقب على أحسن ماتوصف به الرعية ، وطلب تحقيقه من الامة والملة فقال (وأسروا كما تعلنون) لأن أقبح ماتكون الأمة وفى صدرها دخل سواء كانت تصره لبعضها أو لأولياء أمورها

طلب منهم خفض الجناح واقترنه بنشر المعدلة فيهم وطئ الاصر عنهم ولا أجل من ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق .

حكم على نفسه بأن يفى عمره بين الاحسان والعقوبة . وكدلك النفوس الكاملة تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها لكيلا تكون (سكراً فتؤكل أو حنظلا فترمى)

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه . فقد أوصاه عنده وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء ، فلم يدع فيها شيئاً من الخير يمكن الاحاطة به الا تقدم فيه اليه ، وأوصاه بخصال جمله بها واستخلف الله عليه

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هده متدرباً خليقاً بالامارة ، لأن الخليفة المنصور ريضه بما ولاه قبلها من الأعمال مذ شب وتأدب وجالس العلماء وبلغ مبلغ الكمال

أمره على طبرستان وما والاها فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته ثم عهد اليه بالخلافة بعد ذلك فكان العهد اليه عن خبرة وحقيقة نظر فى مصالح الأمة وكان المنصور بترييضه ولده وولى عهده على أمورها وأعمالها نظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته وهكذا الخلفاء

روى المهدى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة ، وحدث عنه يحيي ابن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى وماعلمت فيه جرحاً ولا تعديلا

كان المهدى جوادا ممدوحا محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوماً يعقوب وزيره فى أمر أراده (هذا والله السرف) فقال المهدى : ويحك يا يعقوب إنما يحسن السرف بأهل الشرف ليعلم المكثر من المقل

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه . فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى اذلالهم دليل بحث وتنقيب وحجته فى إفحامهم حجة برهان واستنباط لا حجة علة وصوله، فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والالحاد ومازال بهم حتى أفناهم وطهر الارض منهم

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ثم من بعده لهرون الرشيد ولديه

وفى سنة ٦٠ حج بالناس وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ، ونقل خمسمائة من الانصار إلى العراق جعلهم فى حرسه وأقطع لهم الارزاق

حمل اليه الثلج وهو فى مكة وهذا مما لا يتهيأ لخليفة قبله قط وما ذلك الا من انتظام البريد وأمان الطريق وسلامة الوارد والمتردد وعدم وجود عائق أبدا

ثم عمر الطريق الى مكة وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور (من القادسية الى زبالة) ، وجدد الاميال وحفر الآبار ، وأصبحت الطريق آمنة صالحة الى بيت الله الحرام ومقام ابراهيم عليه السلام . وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها منهل . وسير البريد من العراق للحجاز ومن اليمن إلى مكة الى الحضرة وخصص له إبلا وبغالا لا تحصى وهو مما لم يتفق لغيره أيضا

أمر بترك المقاصير التى فى جوامع الاسلام وقصر المنابر ووضعها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبرى فيه وأدخل فى ذلك دورا كثيرة ولم تزل الزيادة فيه الى وفاته

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات فى بدء عهده وزادت وزاد فى غنيمته . فقد أنه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم وجمع الاجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وصار مستصحبا ولده هارون وبعد أن عبر الفرات بعثه للغزو فحاصر البلاد وافتتحها واثخن فى البلاد

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم فأوغل فى بلادهم وهزمهم وجمع اليه أموالا كثيرة وسار حتى بلغ القسطنطينية وكان على

الروم يومئذ (غسطه) زوجة (أليوك) كافلة لابنها منه صغير
على الفدية وان تقام له الادلاء والاسواق فى الطريق ونال وص
كان عادلا محباً للعدل فاذا جلس للمظالم قال أدخلوا علىّ الـ
ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى
بلغ من تقواه ماحدث به (الحسن الوصيف) قال : أصابتنا ريح ....
فى أيام المهدى حتى ظننا أنها تسوقنا الى المحشر ، فخرجت أطلب المهدى فوجدته
واضعا خده على الأرض وهو يقول (اللهم احفظ محمدا فى أمته اللهم لا تشمت
بنا أعداءنا من الأمم . اللهم ان كنت آخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين
يديك) قال فما لبثنا الا يسيرا حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه
كان سمحا حليما قال الربيع : رأيته يصلى فى بهوله فى ليلة مقمرة فما أدرى
أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه فقرأ « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا
فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » قال فأتم صلاته ثم التفت الى وقال : ياربيع
قلت لبيك . قال : موسى ، فقلت فى نفسى من هو موسى أموسى ابنه ؟ أم موسى
ابن جعفر ؟ وكان محبوسا عندى فجعلت أفكر ثم علمت أنه موسى بن جعفر
فأحضرته فقطع صلاته ثم قال له . ياموسى إنى قرأت هذه الآية (وقرأها)
فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى انك لاتخرج على وتؤدى بخروجك
جماعة المسلمين حتى احليك فوثق له فخلاه
ويحق للقارىء لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله ويجاريه فيقول لا أدرى
قراءته كلام الله بهذا الامعان والتدبر أحسن أم العلم به فى صلة الرحم أم العفو
عن المسىء أم مخافه الله ؟ !

كان عصره عصر خير وبركة . من الزهاد جمع ابراهيم بن أدهم وداود
الطائى . ومن الاعلام الخليل بن أحمد الفرهودى صاحب العروض وسفيان
الثورى وبشار بن برد أول شعراء المحدثين
كان ميالا للسماحة وقدوة فى مكارم الاخلاق قالوا كان يصلى بالناس
الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها فاقيمت الصلاة يوما فقال

اعرابى . لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك . فأمر الناس بانتظاره ودخل المحراب ووقف الى ان قيل جاء الرجل فكبر وصلى

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبي صلى الله عليه وسلم انه اول من قرأ فى الخطبة ، « ان الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » قال الأصمعى : سمعت المهدى على منبر البصرة يقول . ان الله امركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته . وقرأ الآية .

كان يتحسس بنفسه حال الامه والملة . فاتفق له ليلة انه سمع اعرابية تقول . (قومى مقترون . نبت عنهم العيون . فدحتهم الديون ، غصتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت اموالهم ، وكثرت عيالهم . ابناء سبيل . وانضاء طريق ، وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره وخلفه فى اهله ؟) فوصلها وأمر من يوصلها اليها

واسند عن مهدى بن سابق قال : صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة خاتم لك خائن ... فخف الاله وأغننا من خاتم

ان العفيف اذا استعان بخائن ... كان العفيف شريكه فى المأثم

فاستوقف كل عامل يدعى خاتما حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاصاه

واعترضته امرأة فقالت : ياعصبة رسول الله انظروا فى حاجتى فقال انفذوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فانى ماسمعت احدا خاطبنى بها

ومن غرر أقواله قوله (ماتوسل الى احد بوسيلة هي اقرب من تذكيرى بد اسلفت منى اليه أتبعها اختها واحسن ربها فان منع الأواخر يقطع شكر الأوائل

هذه الترجمه مثال تقاس عليه نفحة حسن تربية أولياء العهد وتمرينهم على العمل فى أيام سلفائهم ليمكن لهم أن يتعودوا نظر همهم و يتحقق فيهم النظر فى مصالح الأمه لديهم ودناهم متى أصبحوا أئمتها وواجب على جميع الرعية طاعتهم

ان ولى العهد اذا أصبح ليس بيده ولبس تحقق أسنمه الا موت شاهد لكان ذلك شؤما عليه وعلى الأمه رأى سوء . فانه سطىء نفسه عن كثير من خصال

الخير ولايوجد له احساس يدفعه لحب التعليم ولايكلفه الوصول لما فيه مرضاة الأمة ، بخلاف ماادا سلم لهالنطر فىأمر نفسه وأمور المسلمين على نطر من الخليفة والناس ودفع على الأمور ورأى المنتشط منها والمكره وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى أصبح من أجله أمير المؤمنين كان ذلك من أجل دواعي ترقى نفسه فى مراقى الكمال ، ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن لما فيه من انتفاء الريب

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الاهواء واتحاد النفوس ، واجعل أشد ماتتواخذ عليه ايثار مصلحة المسلمين على كل شيء فى كل شيء من أمر دنياهم وآخرتهم

الرشيد

هو هرون الرشيد وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أبا موسى) ابن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس

تولى الخلافه بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشره بقيت من ربيع الاول سنة سبعين ومائه هذه الليلة من أعجب الليالى تولى فيها الرشيد الخلافه ، وولد فيها له عبدالله المأمون . ومات فيها أخوه الهادى وليس فى ليالى الزمن المعروفه ليلة تختص عن موت خليفه وقيام خليفة وولادة خليفه غيرها . فان كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل

الليالى من الزمان حبالى متقلات يلدن كل عجيبة

فهذه الليله من تلك الليالى

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر قال. رأى الرشيد فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع وستين فقال له . ان هذا الأمر صائر اليك فاغز ، وحج ووسع على أهل الحرمين فقام غازيا أطراف الروم وغنم وانصرف فى شعبان

فحج بالناس فى الموسم وفرق على أهل الحرمين مالا كثيرا وصدق الله الرؤيا ، وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها وفيها ولد له الأمين

كانت ولادة الرشيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام . فأرضعت أم ابن يحيى الرشيد ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد وكان أبوه المهدى فى تلك الأيام وما بعدها أميرا على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما

هذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها فى عدلها وحلمها وانصافها واقامة عماد دولتها واظهار شأنها وحماية ناموسها ، وحاطها بأنواع الاسباب التى تدفع عنها المكاره . هو الذى مثل البذخ والترف والمجد والسرف والأبهة والعز والعظمة والسودد والنعم المقيم الذى جمع دواعى اللذائذ الدنيوية والفوائد الاخروية ، وهو الذى اجتمع له فى خلافته مالم يجتمع لغيره . وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبى حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل :

ان المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة فاذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . واذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة . قال الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طمر وفى البلد الحرام على كور

كان مفرداً فى تعظيم حرمات الاسلام والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ . محباً للعلم وأهله ، مبغضاً الرياء فى الدين والمعارضة فى النص

كان الرشيد أبيض طويلا جميلا مليحا فصيحا . له النظر النافذ فى العلم والأدب كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها الا لعلة ، وله صدقات من صلب ماله تزيد عن ألف درهم فى كل يوم وكان له تواضع فى شرفه أشرف من السرف ، فمن أحسنه (وما أحسن شىء كله حسن) ما حدث أبو معاوية الضرير

قال : أكلت مع الرشيد ثم صب على يدى المـاء رجل لا أعرفه ، فقال الرشيد تدرى من صب عليك ؟ قلت : لا . قال : أنا اجلالا للعلم ورعاية لأهله . وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم . ماأعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم الاالرشيد ، فانه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ، ثم رحل لسماعه أيضا مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الاسكندرية فسمعه على بن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى (خزانة المصريين)

كان مولعاً باحترام العلماء ، فمن فضائله فيه انه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله ، وأمر الاعيان والامراء أن يعزوه

كان بكاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه سيما اذا وعظ ، ولم ير أغزر دمعاً منه عند الذكر ، ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى

دخل عليه ابن السماك يوما وكان يعظه فاستسقى الرشيد فأتى له بماء فقال له ابن السماك : على رسلك ياأمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى قال : اشرب هنأك الله بها ، فلما شربها قال . أسألك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها ؟ قال . بملكى قال : ان ملكا قيمته (كذا) و (كذا) لجدير أن لا ينافس فيه فبكى الرشيد وقال يوما لشيبان : عظنى قال : لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف ، فقال الرشيد فسر لى هذا قال : من يقول لك انك مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم

كان كأبيه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك ، وجبروتاً وشدة مع الحق كثير الكراهة للباطل ، متبعاً للزنادقة طالباً لهم . وكان القول بخلق القرآن شائعا فى عهده فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء حتى يقتص منه أشد القصاص

كان شديد الاقتفاء لاعمال جده متطلباً للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله

وصيانة سرير ملكه وحفظ أبهته وزيه ، فلم يختلف عنه فى شىء الا فى البذل والنوال ، لانه لم ير خليفة بذل مابذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع فكانت صلته تصل مابين الانسان وبين الغنى ، وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج

ولى الخلافة بعد ماتنقل فى مهام أمورها فقد استعمله أبوه المهدى فى الاعمال وريضه عليها ، فجهزه مرارا للغزو بالصائفة والايغال فى بلاد الروم . وفى سنه ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله وأذربيجان وأرمينية ، وجعل كاتبه ثابت ابن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد . فنشأ خير نشء وظهر بخبر مظهر

كان فى عزمه أن يوصل مابين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما (أى أن يفتح ترعة السويس) فساوره وزيره يحيى وفكراطويلا فانكشف لهما تعول الروم ، فخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم وقربهم من الاراضى المقدسة ففرعا عن هذا الفكر

هذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم ، فلا يتورطون فى أمور لاقبل لهم بها ولا يغررون بأنفسهم ، لانهم يعلمون معنى المسئولية التى تحيط بمركزهم ، فلا يقدمون على شىء الا ولهم منه مخرج . ولو كان الناس وزير كيحيى لخفف من هذا البلاء النازل أوحده أو ناطف فاطلف من قصائه المبرم وعاق امتدادالايدى الاجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى خارجده التجار والفجار

ازدهى عصره بين الاعصار بوجود كثير من العلماء الاعلام فيه كالامام سيدنا مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، والكسائى ، وأسد الكوفى . ومحمد ابن الحسن من كبار أصحاب أبى حنيفة . وصعصعه بن سلام عالم الاندلس وغيرهم ، وهذا أيضامن سعة رزق خلافته وارادة الله سبحانه وتعالى له الخير بطانة الخير والفلاح والنجاح الذين يأتسى بهم فى كل صلاح

نقل سيئا كثيرا من عوائد الفرس . منها الكرة والصولجان ورمى النشاب فى البرجاس والسطرنج . وجعل لكل شىء قاعده ومرتبه حتى المغنين ، فانه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها

كان بغداد فى عصره نادرة الدنيا وسكنته المدائن ، فريدة فى حضارة وعمارتها ، ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا ذلك (فى التاريخية) فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه المتدسياحه عليها قد عمّ من قدرها ونبه من ذكرها ، وهو بما أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة دعا الناس بلسان الامن والامان إلى المبادرة اليها بالمتاجر والعروض فتناهوا فى الطلب والاقدام على العمل بعلو الهمة ، وجلس للناس فى منصة عدله وعمهم برحمته ، فشمل القوى والضعيف والعاجز والعليل وذوى الحاجات ومن لا وسيلة لهم ، فأراح عن جميعهم العلل وأبطل الاهواء وحجر بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب

أما غزوه ، وفتحه ، وحجه ، وفديته ، فكثير : منه أنه فى سنة واحد وسبعين ومائة حارب الصحصح الخارجى بالجزيرة وقتله ، وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة وحج بالناس وأحرم من بغداد ، وفى سنة أربع وسبعين حج بالناس وقسم مالا كثيرا ، وفى سنة ست وسبعين ومائة عقد لابنه محمد ولاية العهد ولقبه (الأمين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة (مدينة دلسه) على يد الامير عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح العباسى ، وفى سنة واحد وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم وبلغ أنقره

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر ، وبايع لعبد الله ولده بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها ولقبه (المأمون) وسلمه الى جعفر بن يحيى (وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ورأى ماصنعه أبوه وجده بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وبعد ماصنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد وتوليةابنه جعفر ولو لم يعاجله الموت لفعل) ولكن نفذ قدر ، وضاع حذر

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وسار الى مكة من الانبار وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطية : عطاؤه ، وعطاء الأمين ، وعطاء

المأمون. ثم سار الى مكة فأعطى أهلها أيضا ، وولى الأمين العراق والشام الى آخر المغرب ، والمأمون همدان الى آخر المشرق . وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالاشهاد وعلقهما فى الكعبة فقال الناس قد ألقى بينهم شرا وحربا وخافوا العاقبة وكان ماخافوه

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (زينى) ملكة الروم فكتب للرشيد كتابا يقول فيه : أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها احمالا لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى فاردد ماحصل قبلك من أموالها والا فالسيف بينى وبينك فلما قرأ الرشيد كتابه كتب اليه : قد قرأت كتابك والجواب ماترى لاماتسمع . وسار ليومه ولم يزل حتى نازله وفتح مدينة هرقل بالغزوة المشهورة ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه

وفى هذه السنة كانت نكبة البرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه وتحكم فى نظر الناس مالهم من الآثار وبعد الصيت ، وكثرة ما احتضنوه و نموه ونصبوه من اتباع الدولة وخططها ، وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم واقتصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى النخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الامراء ، واستجارتهم العانى والمعدم والمدين فأحاطوه فأهاجوا بذلك كامن العبرة وسلطوا عليهم بأس الانتقام ومكنوا منهم جماعة الحساد (والدهر حرب « للمقام » العالى) ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة . ولمن بعدهم عبرة . كانت دليلا جديدا على أن الدنيا دول . والمال عارية . نكبة أمسكت لسان المادح ، وقطعت لسان الحاسد ، وبكاها الولى والمولى والعدو والجاحد نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد سعيا ، وأقسم الجود أن لايحيا بعدهم . « ان فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

ثم غادى الرشيد فى سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم حتى لم يبق

فى الأسر مسلم وهو أول فداء كان لبنى العباس وفى سنة تسعين ومائة فتح « هرقلة » وبث جيوشه بأرض الروم ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبه ، وافتتح يزيد بن مخلد (قلفونية) . وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو حراسان للغزو فوصل طوس فتمرض بها ومات فى ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة (رحمه الله) وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتحيه القائم على أمة شهيد الغربة شهيد الجهاد . فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين . ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم ، وسار على البريد فى اثنى عشر يوما من « مرو » حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ودفع ذلك للأمين

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم وكأنهم أحلام

هذه سيرة هذا الخليفه الخامس من بنى العباس طالت ولم نستوقف شطراً من فضائله . والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون اليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة الله يعلم انه برىء منها . وأنى ذلك وهو من العلم والسذاجة واجتناب المذمومات فى دينه ودنياه والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب بمرتبة تشبه مراتب السلف ، وحاله فى اجتناب الخمر معلومة لجميع بطانته وأهل مائدته ، وكفى بتعبره على طبيبه بختيشوع دليلا على ذلك

وكيف يعقل ان الرشيد يواقع محرماً وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى . ومكاتبته سفيان الثورى وبكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها

ان الرشيد رحمه الله أجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته لقربه من خشونة البداوة وسذاجة الدين ، فالله يقتص له وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا مادونوا عنهم فرية وكذبا وزوراً وبهتانا ارضاء لجماعة العجزة الذين لا شغل لهم الا أحاديث النميمة والغيبة

وأكل لحم اخوانهم كأنما هم أعداء للعلم والدين والسلطان
ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

المأمون

هو عبد الله أبو العباس ابن الرشيد بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة ومات سنة ثمانى عشره ومائتين وعمره ٤٩ سنة واستقل بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ وهو بخراسان واكتنى بأبى جعفر . قال الصولى وكانوا يحبون هذه الكنية لانها كنية المنصور ، وكان لها فى نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كنى بها كالمنصور والرشيد

ولما تأتى الملك للمأمون قال : هذا جسيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك ، وسرور لولا أنه غرور ، ويوم لو كان يوثق بما بعده

سمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام وأبى معاوية الضرير وغيرهم وأدبه اليزيدى وجمع من الفقهاء والادباء حتى برع فى الفقه والعربية وأيام الناس وعنى بالفلسفة وعلوم الاوائل . وهو الذى استخرج كتاب اقليدس وأمر بترجمته وتفصيله ، وهو الذى عقدت فى زمانه مجالس المناظرة خصص لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وترفت العلوم فى عهده وتفشت بين العرب . وهو أول من قاس الدرجة الارضية وعرف مقدارها وأخذ من كل العلوم بقسط وضرب فيها بسهم

وأخرج محمد بن عباد أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء الا عثمان ابن عفان والمأمون (ولكن فى هذا نظر)

اشتغل بالحديث حتى قالوا ان الرشيد لما حج معه طلب المحدثين فبعث الى بهم بالأمين والمأمون فحدثوهما مائة حديث ثم قال المأمون أتؤذن لى ان أعيدها من حفظى ؟ قيل نعم فأعادها .

وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص وهو

الذى قال (لانرهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال)

كان المأمون أفضل رجال بنى العباس حزما، وعرما، وحلما، وعلما ورأيا، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسوددا، وسماحة. وله فضائل وسيرة طويلة كلها محاسن

كان أمارا بالعدل فقيه النفس معدوداً من كبار العلماء، احتهد فى رأب الصدوع وسد الفتوق واصلاح ماتشعث من بنيان الدولة. ولكن الحلاف بينه وبين الامين أحيه انستعلت نيرانه وأزكيت تنوره بأيدى بطانة السوء بالسعى والاعراء وزيادة الوحشة ابقاء على أنفسهم وحياتهم الشخصية كالفصل بن الربيع وعيسى بن ماهان والسندى وعيرهم أفسدوا دم الاحوة حتى رضى الامين بخلع أحيه المأمون وتعنط المأمون حتى استحل قتل أحيه الامين، وكل هذا سببه هذه البطانة التى مازالت تصعر الامين من أمر أخيه وتزين له حلعه حتى رجع الى رأيهم وهم يكذبونه ويغشونه ولا يصدقونه وهكذا بطانة السوء فى كل وقت وزمان ليس لها شغل الا افساد ذات البين وتغيير قلب التابع والمتبوع حدمة لمصالحهم الشخصية

استدعت هذه المبادئ التى زرعت بذورها ايد الاعداء أن لاتصفوا الايام للمأمون كما يحب ويختار لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهارا، وابراهيم بن موسى باليمن، وثوار بغداد الذين اشتد أذى فساقهم على الناس حتى قطعوا الطريق وأحذوا النساء والصبيان علانية كأن الامين فتح للناس باب الحلاف ونقض العهد، وكأن المأمون جرأ الناس على حلعه بخلع أحيه وقتله وعلمهم نكث العهد والبيعة، فكان ذلك سببا لكثرة خروج الثوار عليه. كأن لله فى ذلك حكمة عجيبة وسرا فى خليقته من يظلم يظلم حتى لاينقض متبوع على تابع ولاتابع على متبوع حفظا للعهد ورعاية للبيعة واستكمالا لأسلوب نظام الحكومة التى منزلة القائم بها (خليفة الله فى أرضه)

رأى المأمون كثرة الثوار عليه وخروج الكثير بدعوى الخلافة وهم من آل البيت، فعمد الى علىّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر وجعل فيه ولاية

عن المسلمين فكان كما قال الشاعر : (كلما داويت جرحا سال جرح) . نبض فى بنى العباس عرق الخلاف وصعب عليهم الأمر وخلعوا المأمون ، ولولا اتفاق موت على بن موسى الرضى لازدادت هـــذه الفتن واشتد أمرها وكل هـذا نتيجة وجود الدخلاء من غير الملة والأمة الذين لا يعنيهم الا شؤونهم الشخصية فى كل وقت

يعجب الانسان من شأن الخلافة العباسية وبدء انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها (المأمون) الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه أن يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربهـا ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاص ، وان يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة ونزاع ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعـالى ينذر الناس بها ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تقويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم

كان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه ، فكان كثير التنقل من أقليم الى آخر ، فجال فى بلاد الشام وتفرج على آثارها ، ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذى فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الأكبر)

انتقل المأمون الى بغداد فانقطعت بقدومه الفتن ، وفر أصحاب الفساد وشرع المأمون فى فعل ما يؤثر عنه من جميل الفعال والعناية بالعلوم والمعارف ومباشرة العلماء والأدباء ، ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغزا فيها وفتحها . سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات قاضى القيروان وهو من أصحاب مالك وهو مصنف (الأسدية) فى مذهبه بجيش فى البحر قاصدا جزيرة (صقلية) فلما وصلوها ملكوا كثيرا من سواحلها واستولوا على مدينة (سرقوسة) وافتتحوا عمرانا كثيرة حولها ، وفى هـذه الحادثة ظهرت شـدة المسلمين وقوتهم . وفى أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كبير وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات أميرهم فرأوا أن يسيروا بمراكبهم ، فوقف لهم الروم على باب المرسى ، فلما تضايقوا جمعوا أمرهم وأحرقوا المراكب وعادوا للبلاد

فحاصروها واستلبوا حصنها وحصناً آخر اسمه (جرجست) ومدينة (قصريانه) ثم استمرت الغزوات ووصلت مراكب كثيرة من أفريقيا فيها المدد للمسلمين وساروا الى ثغر (باليرم) ثم ساروا الى حبل النار والحصون التى فى تلك الناحية وهم فى كل ذلك غانمون

وحج المأمون بالناس سنين عديدة

ثم دخلت سنة خمسة عشر ومائتين فسار المأمون الى بلاد الروم من طريق انطاكيا وافتتح حصن (قرة) عنوة ونحوا من ثلاثين حصناً أخرى

وكان المأمون كريماً ينفق انفاق من لا يخاف الفقر ، وحسبك أنه لما اتى (بوران) كانت عطياته رفاعا فيها أسماء ضياع فكل من سقطت فى يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الانماطى قال · تغدينا مع المأمون مرة فوضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون وكلما وضع لون قال هذا نافع لكذا ضار لكذا من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ، وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أنواع الطعام ومضارها بالنسبة لأصحاب الامزجة على اختلاف انواعها

ومن أغرب مايؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت اليه فقالت · ياأمير المؤمنين مات أخى فخلف ستمائة دينار فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون هذا نصيبك قالت : وكيف ذلك ياأمير المأمنين ؟ قال الرجل خلف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخا قالت نعم قال فللبنتين الثلثان أربعمائة ، وللوالدة السدس مائة ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ، ولكل أخ ديناران ، ولك دينار

كان مع جالينوس فى معرفة النجوم ، ومع هرمز فى الحساب ، ومع على ابن أبى طالب فى الفقه . فكان يفضل الناس بعقله وكماله ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته . أخرج الخطيب عن يحيى بن اكثم قال · بت عند المأمون ليلة فأخذه سعال فأخذ يسدفاه بكم قميصه حتى لا أنتبه . وكان فيه رفق بخدمه وخاصته .

قال عبد السلام بن صالح . بت عند المأمون ليلة فنام القيم الذى يصلح السراج فطفىء فقام المأمون واصلحه . وقال الصولى : كنا فى السفر مع المأمون فكان يتفقدنا فى الليل ويغطينا

ومن كلامه ما أقبح اللجاجة بالسلطان ، والضجر من القضاة ، والسخافة بالفقهاء ، والبخل بالأغنياء ، والمزاح بالشيوخ ، والكسل بالشباب ، والجبن بالمقاتل وكان يحب لعب الشطرنج ويقول انه يشحذ الذهن

وكان يقول . مافتق على فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال (ولقد صدق المأمون فان العمال ايدى الملك وآذانه الذين بهم تدار الأمور فى الجهات القاصية البعيدة وتسمع بهم الشكوى فان لم يكونوا منصفين على هوى الله عاملين بأحسن السير غير غافلين عن أمر الرعية شيئا نزل بساحتهم المصائب وتحزبت عليهم الأعداء وذهبوا وذهبت الجهات العاملين بها من قبضة الحكومة وتولى أمرها غيرهم وفى السودان المصرى عبرة لمعتبر فضلا عن الجزر والاماكن والنواحى والبلاد التى كانت للاسلام وضاعت بهذا السبب)

ومن حكمه قوله الناس ثلاثة غذاء لابد منه ، ودواء يحتاج اليه فى حال المرض ، وداء مكروه على كل حال

وله الخطب البليغة ، والفقر العربية ومن ذلك احسن الحيلة فى الأمر اذا أقبل ان يدبر واذا أدبر ان يقبل وكان يقول : معاوية بعمره ، وعبد الملك ابن مروان بحجاجه . وانا بنفسى وكان كما قال عنه الرشيد فيه حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة الهادى

ثم دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين فمرض فيها المأمون لثلاثة عشرة خلت من جمادى الآخرة بعلة الحمى . فأمر ان يكتب الى البلاد بالوصية والبيعة لأخيه المعتصم ، ثم أوصاه وصية لم يغفل منها شيئا من وجوه الخير فى بعض ماجاء فيها . (ياأبا اسحق « كنية المعتصم » ادن منى واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة اخيك ، واعمل فى الخلافة اذ طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه) ومنها (خذ من اقويائهم لضعفائهم . ولا تحمل عليهم فى شىء ،

وأنصف بعضهم من بعض ، وتأن بهم ولا تعجل) ومنها (ياابا اسحق عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله فى عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته : « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ») وهى طويلة . ثم مات بالبدندون من ارض الروم ونقل الى طرسوس فدفن بها

قال الثعالبى : ولا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون ذاك (بطوس) (١) وهذا (بطرسوس) (٢)

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ، ونظر للمصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجتماع على الرضى بأحكامه من مسلم وكافر حسبما تقتضيه الشريعة الاسلامية. ويجعل المعاند لها مقراً ومعترفا بأن قوانينها مجتمعة من الأحكام الشرعيـة ، والآداب الخلقيه ، والقوانين الاجتماعية الطبيعية بمراعاة مايلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لأحكام الشرع الشريف ، فهى أرقى من حكم الحكماء وأدب الأدباء ووصيات من فاق بمن فات من أصحاب القوانين والدساتير ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها

حاشا لله أن نترك خبر هذه الخصلة الشريفة يمر على الاسماع من غير حكاية مفيدة ، وشاردة منبوتة ، تنبىء عن فضيلة الوالى والمولى عليه بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبدالله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر ، فانه كتاب جمع الوصية بجميع مايحتاج اليه العامل فى عمله ، بل السلطان فى دولتـه وسلطانه من الآداب الدينيـة والخلقية والسياسة الشرعيـة والملوكيـة ، وحثـه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بمـا لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة وهذا نص الكتاب

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له وخشيته ومراقبته عز وجل

---

(١) طوس بلدة باقليم خراسان (٢) طرسوس بلدة فى آسيا الصغرى

ومزايلة سخطه ، واحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ماألبسك اللهمن العافية بالذكر لمعادك و ماأنت صائر اليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بمـا يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه

فان الله سبحانه قد أحسن اليك ، وأوجب الرأفه عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسربهم وادخال الراحه عليهم ومؤاخذك بمـا فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وانه رأس أمرك وملاك شأنك

وأول ما يوفقك الله عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب اليه فعلك : المواظبة على مافرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعه عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ، ورتل فى قراءتك ، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل « تنهى عن الفحشاء والمنكر »

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده

واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه ، وبلزوم ما أنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أوكرهت لقريب من الناس أولبعيد .

وآثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ، فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل ، فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة

واجلالا له . ودركا للدرحات العلى فى الميعاد مع مافى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسة بك ، والثقة بعدلك

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شى أبين نفعا ولا أحص أمنا ولا أجمع فضلا منه ، والقصد داعية الى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، وكذا فى دنياك كلها .

ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته . أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ، ويمحص من الذنوب . وانك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك ، وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك

ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم اثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ، ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمدا ، فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك ، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك . واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة فى الامور كلها ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الاولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم ، وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك ، فانه أقوم للدين وأحيا للسنة

واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول

عما صنع ، ويجزى بما أحسن ، ومؤاخذ بما أساء ، فان الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ، ورفع من اتبعه وعززه

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك مايفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

واذا عاهدت عهدا فأوف به ، واذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم له أمر

واحب أهل الصلاح والصدق ، وأعن الاشراف بالحق ، واعن الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة

واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وانعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى

واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء ، فان ذلك سريع الى نقص الرأى وقلة اليقين لله عز وجل واخلص لله وحده النية فيه واليقين

واعلم ان الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى أحد اسرع منه الى حملة النعمة من أصحاب

السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله واحسانه واستطالوا بما اعطاهم الله عر وجل من فضله

ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم

واعلم أن الأموال اذا اكتنزت وادخرت فى الخرائن لا تنمو ، واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الاذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فانك اذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أساس لطاعتك

وطب نفسا بكل ما اردت ، واجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وليعظم حقك فيه ، وانما يبقى من المال ما انفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين حقهم واثبهم عليه ، وإياك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار

وليكن عملك لله عز وجل وفيه ، وارج الثواب فان الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله

واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا ، فان الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين . ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما ولا تأمنن غدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخالفن وعداً ولا تذهبن فخراً ولا تظهرن غضبا ولا تباينن

رحاء ولا تمشين مرحا ولا تذ كين سفيها ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للمام عيا ولا تعمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا

وا كثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب ودوى العقل والرأى والحكمة، ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل، ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أ كثر من نفعهم

وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح. واعلم انك اذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية، واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الاقليلا، فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم

ووال من صافاك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم. واجتنب الشح واعلم انه أول ماعصى به الانسان ربه وان العاصى بمنزلة الخزى وهو قول الله عز وجل «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون». فسهل طريق الجود بالحق

واجعل للمسلمين كلهم في نيتك حظا ونصيبا. وأيقن ان الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا. وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتبهم وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا

وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد الناس باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا

واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شىء من الأمور لأنه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينصف المظلوم ويأخذ الناس

حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها

واشتد فى أمر الله عز وجل ، وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها

وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ، ولأهله توسعة ومنعة . ولعدوه كبتا وغيظاً ، ولاهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ، ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه ، ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا لأحد من خاصتك ولا حاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك أجمع لالفتهم والزم ارضاء العامة

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعيا ، وانما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك ، فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف . فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة فى عملك ، واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء

العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك ان شاء الله تعالى

واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ، ويكتب اليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معايناً لأموره كلها ، واذا أردت ان تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه ، والا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ، ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على مايهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة . وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك ، فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت

واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه ، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك ، وتستيقن أمر سلطانك ، وانظر احرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، واحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لايجدوا لخلتهم مسا[illegible] ، وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لايقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لاعلم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم لننظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من [illegible] اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة . وأجر للاضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجرائد [illegible] حتى المسلمين

دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم واسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال

واعلم ان الناس اذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة مايرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ماينال به مؤونة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقرى مايقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته. واكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك. واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للضيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان، فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البائدة، ثم اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وباقامة دينه وكتابه، واجتنب مافارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ماتجمع عمالك من الاموال وماينفقون منها، ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك فى ستر واعلامك بما فيه من النقص، فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك، ووقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك، ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له، فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى المسئلة عنه والتثبت، ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد الا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف الا على

ذلك ، وتفهم كتابي اليك ، وامعن النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ، فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله . وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولاهله عزا وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا . وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام)

اذا افتخرت بالابناء الآباء ، وازدهت المنابر بالخلفاء ، فالمأمون سيد النجباء ، ورئيس الحكماء ، وزين العلم والعلماء . ولكن انشقت العائلة الحاكمة على نفسها ، وتولى هذا الشقاق يد الاعداء ، فما لبثت هذه الحالة ان استعصى علاجها على الحكماء ، الامراء والقادة وفتح باب للشر كان مغلقا . وكل هذه الحوادث ضربها الله مثلا للعظة والاعتبار ليأخذ كل قائم منها نصيب . ويضرب فيها بسهم ، ويتقي الله في نفسه وفي رعيته . ويجعل هذه الحوادث نبراسا له المدارس والواعظ له ليقول الانسان عنها على سبيل التعزية . (ان كانت أساءت قوما فلقد انتفع بها قوم آخرون) فحال الكبر من هذه الحال قريب . والعاقل من اعتبر بغيره وقاس يومه على ماضيه . ونظر الى الدنيا وقرأ عظات الدهر في صفحات أيامه ، فانها الجريدة الباقية على مر الازمان التي لا تمحو سطورها يد الحدثان ولا يبليها مر الجديدان

المعتصم بالله

هو أبو اسحق محمد بن الرشيد ولد سنة ثمان وسبعين كان ذا شجاعة وقوة وهمة ، وكان يقال له (المثمن) لانه ثامن الخلفاء من بني العباس وثامن ولد للعباس ثامن أولاد الرشيد وملك سنة ثمان عشرة . واستمر في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانيا وأربعين سنة وفتح ثمانية فتوح . وأسر ثمانية ملوك وخلف ثمانية أولاد . وثمانية آلاف

كانت قلوب الجنود أشربت الخلاف بما شهدوه من الوقائع بين الأمين

والمأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة ، فتأصلت فى النفوس حاجات ، وفى الطباع خصال لا يسعى أن تلامس قلب الجنود المطلوب منهم الطاعة والانقياد لأميرهم

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ، ونادوا باسم العباس بن المأمون ، وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل ، فأرسل المعتصم الى العباس وأحضره فبايعه . ثم خرج العباس الى الجند وقال لهم : قد بايعت عمى فسكتوا ، وانصرف المعتصم الى بغداد ومعه العباس بن المأمون

قال ابن المقفع : (ان الذى يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الاسد : الناس تراه فوجل منه وراكب الاسد أشد وجلا) لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحواً من خمسين ألفا من التركمان مخافة أن توقع به الجنود ، واتخذ منهم لنفسه حراسا وولاهم محافظة الثغور والحدود ، فكانوا يزدادون يوما عن يوم حتى كانت القوة بأيديهم فى عهد الخلفاء من بعده كما ستقف عليه ان شاء الله

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بان الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم اذا كان حكم المؤرخين على الدولة العباسية بالانتهاء كان مجرد استخدامها جنداً غير العرب فبماذا نحكم على أمة من المسلمين رضخت لغيرهم وتمثلت بهم وهم يخالفونها فى كل مذهب وزادت بها السماحة حتى أصبحت تعتقد أن التشبه بهم فلاح « ان فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

كان المعتصم طيب الأخلاق سديد الرأى قويا ذا نجدة وهمة . يروى عنه انه بلغه أن تيوفيل ملك الروم خرج وأغار على بلاد الاسلام وأن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى جنده . « وامعتصماه » فأجابها وهو جالس على سرير ملكه « لبيك لبيك » وقام من ساعته ناهضاً وجمع من وقته جيشاً لم يماثله فيه أحد عددا وعددا

وأوقف مايملكه من الضياع ثلثاً لولده ، وثلثاً لله تعالى ، وثلثا لمواليه وقصد مدينة (عموريه) وهى أشرف لدى الروم من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد

منذ كان الاسلام فوصلها ، وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد استولى المسلمون على المدينة المذكورة ومنحهم الله النصر العظيم ، وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً ، فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه . وذلك أن العباس بن المأمون اجتمع عليه بعض أناس وأغروه وبايعوه وانه كاتب طاغية الروم فأعجل المعتصم فى مسيره حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية ، وهكذا أهل السوء تنتهز مثل هذه الاوقات التى يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم وتقف أمامه بالفتن والمفاسد وتسد طريق سعادتها الدنيوية والأخروية فتتحالف فى موضع الاتفاق وتتقاتل فى ساعة التناصر وتتباهى فى أوقات المناصبة وتدعو هاحلال السوء لان تستعد للوثبة عند عدم الحاجة اليها وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغائب تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لها رب الدين وخالق العالمين

استكثر من الجند حتى ضاقت بهم بغداد فجدد بناء مدينة (سر من رأى) وتحول اليها وخرجت فى زمنه جماعة من الثوار وأصحاب الأقوال والمدعيات فمكنه الله من رقابهم ، ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر

أسر ملك أذربيجان ، وملك طبارستان ، وملك اسبيان ، وملك اشناصح وملك فرغان ، وملك تخارستان ، وملك الصفة ، وملك كابل وبلغ ما أراد وزاد عليه بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظا من النظام وروحا من الطاعة وولعا وعشقا من الأمة فى تأييد الخلافة ولم تكن الأمور معرضة للخطر واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة فى النفس لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للأمة الاسلامية

وقد أسهب جماعة المؤرخين فى وصفه وسعة أخلاقه وكريم عشرته وأنه لم يكن أسمح منه بالنفقة فى وقت الحرب وروى عنه أنه تصدق بمائة مليون درهم ومن مكارم أخلاقه ان انقطعت عنه أصحابه فى يوم مطر فبينما هو يسير إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر

من يمر به فيعينه فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه ووكل منهم به من يسير معه

قال اسحق بن ابراهيم : سألنى المعتصم فقال نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم فقلت أجيب على أمان من غضبك . قال نعم . قلت له ياأمير المؤمنين : نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجب ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها فقال يااسحق . لمقاساة مامر بى طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب

(ان عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الأمة يتقلب بها الحال فى كل وقت الى أشأم مايكون لأنهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب موضع السلام ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضاً للهلكة لأن هذه الطائفة أقرب الناس الى الملك وهى التى تمثل طباعه وأغراضه ولا ينبغى أن يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم)

كان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها أمورا محمودة : فأولها عمران الأرض التى يحيا بها العلم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش الانعام وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه : ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وسائر ماينتفع به الناس

ثم اختاره الله سبحانه وتعالى للدار الآخرة فقضى فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين وقال عند ما احتضر « ذهبت الحيلة فليس لى حيلة »

وكان المعتصم كلمات فصيحة وشعر لابأس به وسيرته هذه اذا لوحظ فيها ماطرأ على مصالح البشر من الفساد وما قذفت به الأمة الاسلامية نفسها فى

مهاوى الشر من الطيش والنقص تكون خير نذير لما فيهام من المنفعة وإشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها وتفقد ماقصد بوضعها

اللهم فانشر نزغات الاهواء وأنزع من نفوسنا حب الغلبة على ما حولنا وصرّف ارادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد وألهمنا معرفة العارفين وارادة المختارين لتستشعر نفوسنا بالخير التى هى مسوقة اليه آمين

المتوكل على الله جعفر

هو المتوكل على الله جعفر ابو الفضل بن المعتصم بن الرشيد بويع له فى ذى الحجة سنه اثنين وثلاثين ومائتين

كان المتوكل ذكى الفكرة زكى الفطرة ظهيرا للسنة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافعة عنهم ، فاخذ منذ ملك قياد الأمر فى رفع المحنة التى وقعت . والبلية التى عظمت . وهى محنة القول بخلق القرآن التى استمرت من عهد المأمون الى عهد المتوكل . وانقضت السنين الطويلة والأمة لاتعان على صرف بلائها عنها مع انها على غير طائل ، وقد اصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر وامر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس ايام المعتصم والواثق وأمر بالتسليم والتقليد

كتب المتوكل الى الآفاق فى سنة أربع وثلاثين بترك هذه البدعة . واستقدم المحدثين الى سامرا (سر من رأى) للحديث واظهار السنه والجماعه وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤيه . وأجلس أبابكر بن شيبة فى جامع الرصافة فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف نفس . وأجلس أخاه عثمان فى جامع المنصور ، فاجتمع اليه أيضا نحو من ثلاثين ألف نفس وتهلل الناس فرحا ، وانطلقت الالسنة بالدعاء للمتوكل . وبالغوا فى الثناء عليه . ووافق ذلك اصابة ابن أبى دؤاد (محدث هذه البدعة ومبتدعها) بفالج صيره

حجرا ملق ، فأزاح الله هـذه البلية ورفعها عن أمة نبيه صلى الله عليه وسلم واستراح الناس

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : (أبو بكر) رضى الله عنه فى قتل أهل الردة ، وعمر بن عبـد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل فى احياء السنة وإماتة التجهم

اللهم لا سيطرة على خلفاء الاسلام ، ولكن الانسان يستحدى من نفسه ادا وجد أن عهدا طويلا وزمناً مديدا استوعب خلافة أربعة من الخلفاء يقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ماوسع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام والانصراف الى فتح الفتوح والتوجه لما فيه المنفعة استجلابا لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانيـة والأمور الحربيـة بالجمع والتفريق والتبعيد والتقريب والتشتيت والتأليف واستعمال المحربين الذين أمنت حياتهم وتحققت أماناتهم حتى ينقلوا طبع الأمة من الميل الى الاعتدال ، ويعرفوها صفات الخير والصلاح

ينبغى للأمة الاسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث ، فتتجنب كلما يؤديها للفرقة ويجرها للتباغض ويجعل سهمها بينها فان شر الافتراق قد جر عليها ماجره من الويل والثبور ، وأصبحت وقد ضرب بينها بسور من التخاصم والتباغض ، ولاحول ولاقوة الا بالله

وفى سنة ثمـان وثلاثين حدثت حوادث جوية عظيمة : منها خروج رياح بالعراق شديدة السموم أحرقت الزرع ومنعت الناس المعاش ، وزلازل فى جهة انطاكية خرت منها الجبال وتقطعت ، ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة ، وغارت عيون المـاء بمكة . فأرسل المتوكل لأهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بمـا تعطف به من الاحسان

وبعث الى بلد الله الحرام بمـائة ألف دينار لاجراء الماء من عرفات اليها

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت مموّهة بالمتشاكل أياما اشتغل فيها بالفتوحات فى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية وافتتح جالية الاندلس اقريطش اغتاظ الروم وجهزوا نحو ثلثمائة مركب عليها ثلاثة أمراء فاخذت بالجولان فى عرض البحر الأبيض المتوسط تنتهز الفرص للايقاع بالمسلمين

من ذلك انهم انتهوا الى مدينة دمياط بمائة مركب ، وخرجوا على غرة من أهلها ، وكانت فارغة من الجند فاحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ، ثم رجعوا ويقال : انه لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم

وفى خلافته افتتح (بغا) قائد جنوده مدينة (تفليس) (١) وغزا المسلمون الروم عـــدة مرات فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان بالاساطيل فافتتح حصن انطاكية ، وفى خلافته أغار (البجاة) (٢) وامتنعوا من أداء الخمس على مصر حتى ولى محمد بن عبدالله القمى اسوان وقفط والأقصر واسنا وأرمنت وأمر بحربهم فزحف عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان

كانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها لحبه فى استقامة الملك وشمول الناس بالأمن ورخص السعر وبث العدل وكونه وسطا فى كل شىء : فى جوده وإمساكه ومضاحكه وهزله ومجونه وطربه . وكان ولعا بالأدب محبا للشعر والشعراء ، وهو الذى يقول فيه بعضهم :

فامسك ندى كفيك عنى ولا ترد   فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت فى مدته ثياب لباس الملحم وهى فى نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنع وعرفت بالثياب المتوكلية وحدث فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والاروقة نسبة الى ملوك الحيرة وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة وخزانة للكسوة وباب لما يحتاج اليه من شراب وغيره

ولم يعلم بأحد مقدم فى صناعته فى جد أو هزل الا وقد حظى فى دولته بنصاب وسعد فى أيامه ، فكانت أيامه مزهرة بكل جميل

---

(١) تفليس قاعدة الحكومة المحلية فى بلاد القوقاز التابعة لدولة الروسيا الآن

(٢) وهم التتار به الساكنون بالجهة الشرقية من النوبة بين البحر الاحمر والنيل [illegible] زاريهم هناك وفى اسوان ولهم عمل فى حوادث السودان

كان ولعا بحب أهـل الخير والصلاح عاشقا للعلماء حتى انه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذوالنون) وتكلم فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وأنكر عليه ذلك عبدالله بن عبدالحكم رئيس مصر وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنـه فى زمانه ، وقال بأنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة ، وبلغ الأمر المتوكل أمر باحضاره فاستدناه وسمع كلامه فولع به وأحبه وأدرك منزلته وأكرمه وكان يقول : (اذا ذكر الصالحون فحيهلا بذى النون). وكان متمذهبا بمـذهب الشافعى رضى الله عنـه . وهو أول خليفة اتخذ مذهبا وكان يقول (أيها الناس ان محمد بن ادريس المطلبى قد صار الى رحمة الله وخلف فيكم عملا حسنا فاتبعوه تهتدوا) اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة وسهل على حفظ مذهبه وانفعنى به

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك انه جمع فى داره مجلسا من العلماء وكان فيهم أحمد بن المعدل وغـيره فخرج عليهم فقام الناس غير أحمد بن المعدل فقال المتوكل لعبيدالله . « ماباله ؟ » قال . ان فى بصره سوء . فسمعها أحمد بن المعدل فقال . ياأمـير المؤمنين ما فى بصرى سوء ولـكن نزهتك من عـذاب الله . قال النبى صلى الله عليـه وسلم . (من أحب أن تتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النـار) فسر به المتوكل وجلس الى جانبـه . ومن كلامه مع يزيد المهلبى : (ان الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبونى ويطيعونى)

كان مدركا خطارة مركز الخلافة والمسئولية التى تحيط به فكان يذوق منها مرارة العواقب كما يسيغ حلاوة المـآرب وكان فى أغلب أوقاته مطرقا مفكرا

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان وهو على هذه الحالة فقال له : ماهذا الفكر فوالله ما على ظهر الارض أطيب منك عيشا قال : يافتح أطيب منى عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة لايعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج الينا فنزدريه

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ومات فى عهد خلافته الـكثير من خيار الناس والعدد العديد من شرارهم فمن خيار الأمة الأعلام ذو النون

المصرى ، وأبو ثور ، والامام أحمد بن حنبل ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى بمدينة السلام ، وعبد الملك بن حبيب امام المالكية ، وسحنون صاحب التآليف ، واسحق بن راهويه . ومن أصحاب الفتن ابن دؤاد صاحب فتنه القول بخلق القرآن ، وأبو بكر الهذلى العلاف شيخ الاعتزال ، وجعفر بن حرب من كبار المعتزله ، فأزال الله بموتهم عن الأمة ما كان محيطا بها من الخبال وما اكتنفها من سوء الحال

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت فى ليلة ثم نمت فرأيت فى نومى كأن رجلا يعرج به الى السماء وقائلا يقول :

ملك يقاد الى مليك عادل مفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعى المتوكل من « سر من رأى » الى بغداد

وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره . ومن أغرب ماوقع ان المتوكل قال للبحترى : قل فى وفى الفتح شعراً فانى أحب أن يحيا معى ولا أفقده فيذهب عيشى فقال فى هذا المعنى

يا سيدى كيف أخلفتنى وعدى وتثاقلت عن وفاء بعهدى
لا أرتنى الايام فقدك يا « فتـ ـح » ولا عرفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلى ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذرا أن تكون إلفا لغيرى إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقتلا معا

وأغرب من ذلك ماحدث به البحترى قال : اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف . فقال بعض من حضر وقع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير فأمر المتوكل بكتابة كتاب الى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ فنفذت الكتب قال البحترى وبينا نحن عند المتوكل فى ليلة أخرى إذ دخل عليه عبد الله والسيف معه فسر المتوكل به واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان الغداة طلب من الفتح بن خاقان غلاما يثق بنجدته وشجاعته فجاءه باغر التركى فدفع اليه السيف وزاد فى أرزاقه ولم يمض

الايام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد باغر المذكور قياماً بحرص المنتصر
كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد وسوء التصرف فى أمر ولاية
العهد ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد فى الامين والمأمون ، فبايع المتوكل بولاية
العهد لابنه المنتصر ، ثم المعتز ، ثم المؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة
ثم بداله أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد
فأبى فكان يحضره مجلس العام ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه ويتوعده ، فما
زال المنتصر يرتقب الفرص حتى تحقق أن الحبش التركى الذى اتخذه المتوكل
انحرف عنه لأمور فاتفق معهم على قتل أبيه فدخلوا عليه خمسة وهو فى جوف
الليل فى مجلس أنسه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال
سنة سبع وأربعين ومائتين

وفى ذلك يقول البحترى من قصيدة له :

أكان ولى العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ألا إنما المطمئن للدنيا مغرور والساكن للدهر جاهل ، فهى دار لايدوم
نعيمها ولا تتم سرورها ولا يؤمن محذورها . قرنت السراء بالضراء ، والشدة بالرخاء ،
والنعيم بالبلوى ، وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله عزيزها ذليل ، وقويها
مهين ، وغنيها محروب ، وعظيمها مسلوب ، وليس أبقى على صفحات أيامها من
عمل مقصود به الخير والبر والاحسان ، فهى التى تعجز عن أن تأكله بأنياب
فنائها ولايزال يذكر به فاعله وهو على جدة لايبلى ، فالله سبحانه وتعالى يوفقنا
للعمل النافع الدائم الذى لا تبليه الايام ولا تفنيه الاعوام آمين

نبذة تاريخية

قد أتينا فيما سبق من رسائل (حماة الاسلام) بما شاءالله أن نكتب من تراجم حلفاء الدولة العباسية واتصل بنا الكلام لحد ترجمه (الخليفةالمتوكل) فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين لاعتبارهم تلاشي واضمحال الدولة العباسيةمن قبل ذلك أى (بخلافة المعتصم) لانهانحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة فجعل كبار قواده وعمال جبايته وحاشية خلافته وجنديته من غير اللب الخالص من صميم العنصر العربى

ولكن لما كان من العدل اظهار الفضل وكان (للمتوكل) رحمه الله حسنات كبيرة من أجلها وقوفه امام فتنه القول بخلق القرآن التى هددت الخلافةالعباسية وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها . ثم تصديه لاحياء السنن الشريفة المعطلة واماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى « أبا بكر الثانى » ختمنا به تراجم تلك الخلافة ليكون خاتمة حبرلها ولكى لاتعيب عن الذكر أفعاله وفضائله هذه

اضمحلت الخلافة العباسية بالاسباب التى اضمحلت بها الخلافةالأمويه من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل ، وزادت عليها عوارض أخرى أصابتها متتالية فكانت أسد بلاء من تلك الاسباب المتقدمة منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة والتفرق فى الاعتقاد وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراونديه وغيرهم . ومنها كثرة وجود دخلاء الاعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية مالا يفعله العدو العادى بعدوه

ان المستقرىء للحوادث المتتبع لما جريات الأحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والأعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم

أدخلت هذه الطائفة نفسها فى خدمة الخلافه بقصد الانتقام والأخذ بالثار [illegible] الفتوحات الاسلامية التى قامت بها العرب فى بلادها من أول فتح المدائن الى عهد الفتوحات العباسية (والخلفاء غفلت عن ذلك) وهو ماتنبئ به الاعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند والأقوال الصريحه التى [illegible] من كبار قواده

أظهر هدا وهدا أن فى النفوس حزازات قديمة ، وفى الصدور صغائن كامنة ، ه ان كل أعمالهم أعمال المنتقم لنفسه المضمر التشفى بالعدوان اماتوا المنتصر مسموماً ، والمستعين بالله مذبوحا ، والمعتز بالله معدبا عطشان . والمقتدى بالله مقتولا ، والمتقى بالله مسمولا (١) وهكذا لكل خليفة عندهم قود ودام هذا التجرؤ والعدوان متواصلا منهم على مقام الخلافة وهم يتفننون فى ايصال المكروه اليه وايقاع الأذى به كالخلع والتمثيل والتقتير والتعطيش حتى نمت فيهم القوة ، وخافتهم الناس اتقاء شرهم ، وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم (والظلم كمين فى النفس القدرة تظهره ، والضعف يخفيه) فسمع من (مرداويج) مقدم الديلم باصفهان الذى مات فى خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول : (سأرد دولة العجم وأمحق دولة العرب) رواه السيوطى فى تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء . وقد أعينوا على ذلك بقدر من الله وقضاء سابق لجلوها عن بغداد وفعلوا باثارها مالا يفعله السوس بالصوف

الدخلاء فى كل ملة ودولة موضع بارع مسمر وظلم من الأخ حالكة ، وكثيراً ماهدموا قصور السلاطين والأمراء من كل أمة وشر هذه الطبقة لايقف عند حد . وأقرب مدكور منهم من استخدمتهم الدولة العلية « صانها الله » فى خاصة خداماتها من الارمن واللعاربين وغيرهم من أهل الوسسة والهرسك ثم ما أحاط بالامة المصرية حتى نزل بها فى هاوية الهلاك

كانت ولا تزال يد الاغراض من كل دولة تدير حركة هؤلاء الاجانب من وراء الحجاب فيتحركون وفق ارادتهم (كأشباح اللاعب) فينشئون سحباً من الأوهام والأباطيل يقذفون بها فى عقول الخاصة فضلا عن العامة حتى يتم لهم من القسمة مايريدون

وصلوا بسوء أفعالهم فى الدولة العباسية الى أن قتل الاخ أخاه ، ووقعت بين الناس حالة من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم سوأ وخافوا كيد بعضهم بعضا ،

---

(١) سمل العين فقؤها بحديدة محماة

واىها لموعظة تنق نقاء الدهر ترعح العافل ، وترجع للب الداهل ، وتحمل المعتبر
نها من أهل السلطان على رعايتها ليستقيم اليه أمر الناس

تحللت الحلافة العباسية شؤون وأمور ذات بال بعضها يذكر للبركة
ونيل الاحر باداعة الفضل وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى . ولابد لنا
من أن نأتى عليها قبل الانتقال الى ذكر (حماة الاسلام) فى الدول الاسلامية
الاحرى ، لانها لهذه الحلافة تبع . منها تراجم الاربعة الأئمة رضوان الله عليهم
وما حصهم من الفضل وابتلاهم به من المحن كأبى حنيفة ومالك بن أنس
والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة العباسية
ولانهم زينة تراجم (حماة الاسلام) اذ هم بهجة مفاخر الانام ، ومنها ماحدث
فى مصر من التحالف مع سدة الحلافه العباسية فى عهد المعتضد ونزوعها
للاستقلال جريا وراء أغراض (أحمد بن طولون) والشقاء الذى نجم عنه فى
الدولة العباسية والويل الذى جر هذا العمل على أهل مصر لاتباعهم هواه
وسيرهم على وفق حطرات أفكاره بلا ترو ولا تفكر حتى انجلى الأمر بصرف
وجوه المصريين عن باب الحلافة واصبحوا ملعبة دوله الاخشيديه وحلافة
الفاطميين التى سدت لهم سدا تعذب ضروب المحال ومنها دخول القائد جوهر
بجيش المعز لدين الله مصر والاسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته والاحوال
التى استكشفها المعز لدين الله فى الأمه المصرية قبل أن يدخلها قائده بحسبه فاتحا
بما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ وعبرة لمعتبر وزجر لمزدجر ، ثم نأخذ بعد
ذلك فى سرد تراجم ساداتنا حلفاء الحلافة الامويه فى الاندلس التى ابتدأت
بالخليفة عبدالرحمن حفيد هشام الأموى فجمعت أشتات الفضائل ورفعت للعلوم
والفنون أعظم منار ، وكانت زينة الاسلام وفخره وعزه وشرفه ، والله الموفق

-٨٤٩٤٤-٤-٤-٣٤٦-

ابو حنيفة النعمان

(رضى الله عنه)

هو ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى احتلفوا فى تاريخ ميلاده اختلافاً كثيراً بين سنة احدى وستين وسنة ثمانين

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين وكان على يده انتشار السنة وتمام حاجة العالم الانسانى بها. وهو المفرع لكل ملهوف، والغياث لكل مهموم، والمنار الذى به يهتدى المتحير ويسلك الناس على نوره وضح الطريق

هو أحد اركان العلماء، وأحد الأئمة الاربعة أصحاب المذاهب المتبعة أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك، واطبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده، ووفقه الله تعالى حتى اجتمع مايقرب من شطر الاسلام على تقريره والاخذ بقوله عصمه الله عن القول بخلق القران والقول بالقدر والقول بالارجاء مع ان هذه الاقوال وغيرها كانت من مقتضى السير الطبيعى للزمن الذى كان فيه وكانت سبب المودة والقربى للخلفاء والأمراء، ولكن أبى الله ان تسطو على روحانيته نفس انسانية

كان حسن الوجه ربعة ذا شهامة عظيمة من احسن الناس منطقا واحلاهم نغمة وابينهم حالة حسن الهيئة. جميل الثياب والبزة كثير العطر يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل شديد الكرم حسن المجالس كثير المواساة لاخوانه وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد إذ سأله عنه فقال: قال الله تعالى « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » وهو عند لسان كل قائل كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله مجانباً أهل الدنيا فى دنياه طويل الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً ان سئل عن مسئلة وكان عنده علم فيها أجاب على ماسمع وبما ثبت عنده، ماعلمت ياأمير المؤمنين رجلا أكثر منه اشتغالا بدينه عن نفسه وعن الناس لا يذكر أحدا الا بخير فقال هرون. (هذه أخلاق

الصالحين) وقال الشافعى رضى الله عنه (ماقامت النساء عن رجل أعقل من أبى حنيفة) وقال جعفر بن الربيع : (أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه اذا ترك ولا أشد سيلانا منه اذا سئل)

كان لا يفتر لسانه فى خلوته عن تلاوة القرآن وربما أتم فى بياض نهاره ختمة وفى سواد ليلته أخرى ، وكثيراً ماصلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ولم يسمع حالفاً فى عرض حديثه

يروى عنه أنه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها فلم يجد علما يسأل فيه صاحبه ويفتى الناس بما يغنيهم به غير الفقه فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلا به ، وأتى أبا اسمعيل حماد بن أبى سليمان وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه فى زمانه وله مناقب كثيرة فلازمه ووجد عنده كلما طلب ومازال حتى كان يجلس فى الحلقة بحداثه واستنابه وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ولم يفارقه حتى مات فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة

أخذ حماد بن سليمان رضى الله عنه العلم عن ابراهيم النخعى وهو أخذه عن علقمة والأسود وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبدالله ابن مسعود رضى الله عنهم ، فلما مات ابراهيم النخعى رضى الله عنه وكان مفتى الكوفة جلس أبو حنيفة رضى الله عنه للافتاء بعده باجماع من جماعة المسلمين والتابعين واختلف اليه الناس وكان أكثرهم اختلافا اليه صاحبه أبا يوسف ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره واحتاج اليه الأمراء وذكره الخلفاء جلس للافتاء ليتنفع به الناس ويسهل عليهم معرفة حدود الله سبحانه وتعالى ويردهم الى أوامره ويحظر عليهم المحرمات

وذكر فى مسنده مايقرب من مائتى شيخ أخذ عنهم العلم وروى عنهم الحديث وفيهم من التابعين حتى ان بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء فلم يخل حرف واحد منها

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال : حدثنا هلال

ابن بدر أبي العلاء عن أبيه ، عن أبي حيفة قال : لقيت سبعا من الصحابة وسمعت من كل واحد منهم خبرا

كان غاية فى الفراسة والفطنة حتى كاد أن يدرك بها المغيب ، ونوادره فى دلك كثيرة جدا

وهو أول من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب . فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلمه المنصور بذلك

ومن مكارم أخلاقه انه كان له جار يعمل نهاره أجمع فاذا جن الليل رجع الى منزله وقد حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها ، ثم لايزال يشرب ويغرد بصوته

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع كل يوم جلبته . ثم فقده ليلة وعلم أن العسس أخذه فركب واستأذن على الأمير وسأله تخليته فقال له الأمير : وكل من أخذ فى تلك الليلة . فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة رضى الله عنه (أأضعناك ؟؟) وناوله مايستغني به على نقصان دخله فى أيام حبسه فكشف الله بهذا الفعل النعمة عن عقل الفتى حتى تاب واختلف الى أبى حنيفة حتى تفقه

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع الى بغداد للتجارة ويجريها مجرى الفضل على اخوانه فيشترى مايحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ويعطيه لهم محتسباً ربحه من أثمانها ويقول : هذا رزقكم أجراه الله على يدى مثل ذلك ان فقيها احتاج مرة لثوب خز فقال : مالونه ؟ قال كذا . فقال اصبر ثم استدعاه بعد أيام وقال هذه حاجتك وثمنها درهم . فقال له الفقيه تهزأ بى قال لا والله اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم بعت أحدهما بعشرين دينارا وبقى هذا بدرهم وما كنت لأربح على صديق . فأخذه وشكره

لقد دفع أبو حنيفة رضى الله عنه لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس وتتصنع لها فامتنع عنها طلبا للسلامة فى دينه ومنح العطايا فلم يقبلها ومعه عفاف النفس وطهارة الذيل

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله فى (الطراز) أى

صدقات بيت المـال فأبى . وطلب منه أبوجعفر أن يـلي قضاء الكوفة فلم يقبل فضربه بالسياط وسجنه وقيده بأثقل الحديد فلم يقبل وحاءته أمه وقالت له : يانعمان ان علما ماأفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفرعنه فقال: ياأماه لو أردت الدنيـا ماضربت ، ولكن أردت وجه الله تعالى وصيانة العلم ولم أعرضه للهلكة

صدق القائل . (الرجال سواء حتى تقع المحن) تحتاج الوقفة التي وقفهـا أبو حنيفة رضى الله عنه أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده وعزم شديد يؤيده وهداية عظيمة تنبهه حلف عليه أن يلي القضاء فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل . فكرر الخليفة اليمين فثناها أبو حنيفة فقال له الربيع أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف . فقال ان أمير المؤمنين أقدر منى على كفارة ايمانه . فأمر بحبسه ومازال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة وقيل انه توفى فى اليوم الذى ولد فيه الشافعى رضى الله عنه . وتولى غسله الحسن بن عمارة فلما غسله قال : رحمك الله نامن لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة ، والله لقد أتعبت من بعدك

كثرت الاقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه حتى قيل انه كان يخرج فى كل يوم ويضرب فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات . وقيل انهم ضيقوا عليه الأمر حتى فى طعامه وشرابه ومهما يكن فى هذه الأخبار من المبالغة فان الحبس متفق عليه لتواتر خبره ، وكفى به عذابا لمثل هذا الامام العظيم

(أشد كم بلاء الانبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل)

هـــذا الشعور الذى يهيء النفوس لارتقاء درجات الكمال والوصول لاطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الاسلام فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى وأوجب هـذا حدوث البدع والفوضى الدينية وانصرف كل واحد من الناس الى هواه فانحطت رتبة العلم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظموا

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله ، وشرحوا للعقول ماخفى من شؤونه . وبينوا مداخل السعادة الدنيوية والأخروية فيه ، وجاؤا للناس معبرين عما تحمله طاقة

العقول ولا يبعد عن متناول الافهام لقومت نفوس وكبحت شهوات . ولكن هــــذا ماأراده الله ولاحول ولاقوة الا به

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الامام ، وما كان لنا ولا لغيرنا أن نحصيها وندونها فى مثل هــــذا القليل ، ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر. والغرض التشوف لمثل هــــذا الكمال ، ونهوض الهمم لقطع سلاسل التقليد واصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كان يسعى أن تفاخر بها الاجيال ، وتسمو بها فوق كل كمال

القاضى أبو يوسف

(رضى الله عنــــه)

هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصارى أحد الصحابة رضى الله عنهم ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة ، وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع السوية ومشهد الخندق ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل فالاشد بداعلى حداثة سنه ، فمسح بيده الشريفة على رأسه فبقيت فى الدرارى بركتها

مات أبوه وهو صغير فقير لم يكن له ما يطعمه الخبز ويسقيه الماء ، فأسلمته أمه إلى قصار فكان يفر منه ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه ، فلما طال ذلك عليها جاءت الى الامام وقالت له . ان ولدى هذا صبى يتيم فقير وقد أفسدته على فقال لها (دعيه فسيأكل الفالودج فى طباق الفيروزج) وناولها مائة درهم وقال : اذا فرغت فاعلمينى ، وكان يتعاهدها بعد ذلك كالما يخبر بنفاد ماعنــدها ، ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقة وانتهت اليــه الرئاسة الدينية والدنيوية والامامة فى الفقة والحديث وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه الى رقى وكمال وسعادة حال ، وتسمو به الى همم رشد بلغه طريق الهدى الألهى الداخل تحت قوله تعالى « اناهديناه السبيل »

فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب ، وأصبحت روحانيته تتلذذ بالحديث ، ونفسه الباردة تتنقل فى رياض المعرفة كأنما ذلك من بركة تلك المسحة

نذكره بعد أبى حنيفة رضى الله عنهما لانه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الامام ، اد المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين وكما ملأ الامام به الصدور حلى به القاضى السطور فنقله من ضيق الصدور الى سعة الطروس ، فهو اكليل التاج ، ومفتاح ذلك الرتاج الذى كمل بموسات العلم بتعهده ، وتكامل علو بنائه الشامخ على يده ، فهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه ، وأملى المسائل ودونها وبث علم أبى حنيفة رضى الله عنه فى أقطار الأرض ، ولم يكن فى زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسنة النبى وأوعى لكتاب الله منه

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء : المهدى ، والهادى ، والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء ، وكان يقول ليتنى لم أدخل فى القضية على ان زين دست القضاء كان محبوبا لخلفاء وقته ورمانه · وكان عند الرشيد حظيا مكينا ، وهو أول من دعى قاضى القضاة ، لان الخليفة كان يستنيبه فى سائر الاقاليم التى كان يحكم عليها وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى ، وما كان لاحد أن يطمع فى رئاسة بلدة فيها أبو يوسف

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه . من صدق اللهجة ، وعفاف الطعمة . وحسن الصمت ، وكثرة الوقار ، وعظم الأناة ، وعزة النفس . وكراهة الخلق وقلة الحرج ، ولطف الطبع ، ورقة الحجاب ، وسعة الصدر والصلابة فى الحق والتواضع لله والثقة فى ذاته ، والايثار فى إقامة الحدود . والمساواة بين الخصوم والتثبت فى سماع الحجة فلم يتعمد جورا ، ولم يخاف خصما ، وكل أحكامه كانت بما يوافق الكتاب والسنة

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) حج مع الرشيد معادلا له ، فلما دخل مكة صلى « هرون » بالناس الظهر ركعتين . فلما سلم قام أبو يوسف وقال . ياأهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر . فقال رجل من فقهاء

مكة : نحن أفقه من أن نعلم فقال له أبو يوسف « لو كنت فقيها ما تكلمت في صلاتك » فطرب لها « هرون » والحاضرون

ومن أغرب ما سمع عن محفوظه وسعة اطلاعه انه لم يجر على لسانه في حديثه مع الرشيد أثناء مصاحبته في سمره هذا شيئا معادا ، فلم يكرر له حبرا ذكره ، ولم يعد له حكاية رواها ، ولا وصل الى مكان الا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له واستشهد عليه بشيء ان كان تم ذلك . وناهيك بامام تخرج على أبي حنيفة رضي الله عنه وسمع من أبي اسحاق الشيباني ، ويحيي بن سعيد الانصاري وتلك الطبقة . وكان أفقه أهل عصره لم يتقدمه في زمانه أحد يحفظ من المنسوخ عشرين ألفا فما ظنك بالناسخ

« كل ذي نعمة محسود » وما أدراك بنعمة اشتملت على الرئاسة والجلالة والقدرة والسعة في سطوة الدين والدنيا والارتقاء على دست القضاء ومقام الفتوى المؤهل كل منهما للامانة والديانة والفضيلة ، والداعي للقرب من مقام الخلافة ونفوذ الكلمة وشدة السطوة

أراد الأعداء الحط من هذا المقام العالي فما وجدوا اليه سبيلا ، فحاولوا لبعض أبواب وصاغوا منها مسائل مجعولة في الفقه والفتوى خرجوها على غير وجهها ، وتوسعوا فيها بأكثر من حدودها ، وافتروها عليه وتصنعوا في رواتها عنه كأنهم يستدلون بها على سعة علمه وسمو قوته وقدرته ، وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها — وهم في الحقيقة من ألد اعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء — نشروا ذلك بين بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ، ولا تنكشف لهم اوجه المسائل ، ثم عدوها عليه بعد انتشارها من أشد العيوب وهو بريء منها مما أحذره بقول العربي (ربوه وحدوه)

كأنما كان أبو يوسف (استغفر الله) آلة لتوجيه الايمان بعد توكيدها في كل شيء ، وكأنما كانت الخلفاء في وقته على غير رأي

ذكروا له أشياء كثيرة في مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره (تجدناها) ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشيء . فمن ذلك ما يحكى أن الرشيد خاصم

زبيدة فى شىء فأغضبها وأغضبته ، فحلف عليها بالطلاق أن لا تبيت ليلتها فى ولايته ومملكته ، ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها ، فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة فعجزوا ، ثم استدعى القاضى أبا يوسف وسأله هل من حيلة قال نعم قال وماهى ؟ قال قل لها ياأمير المؤمنين : تبيت فى المسجد لأنه لا ولاية لك عليه فان الله تعالى يقول : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » فسر الرشيد بذلك كثيرا

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضا أن الرشيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه ، فأمر بتعذيب الخادم فقال له أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ان الحيوان بجملته يألف الأضواء والخادم قد تعهد البساط ونحاها عنه ، ولكنها كلما نحيت تعود ، فأمر الرشيد أن تحمل وتنحى بعيدا ففعل فعادت ، ثم أمر أن تحمل وتبعد أكثر من الأول ففعل فعادت فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون اليه فى حلقة درسه ، فجلس اليه مرة رجل وأطال الصمت فقال له ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر الصائم ؟ فقال اذا غابت الشمس قال فان لم تغب الى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال : قد أصبت فى صمتك ، وأخطأنا فى استدعاء نطقك

فى الصمت ستر للغبى وانما صحيفة لب المرء أن يتكلما

توفى فى سنة اثنين وثمانين ومائة (فعزى الاسلام بعضه بعضا بموته) ومشى الرشيد فى جنازته وصلى عليه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الأمين

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لأهل العلم بمكة ، والمدينة ، والكوفة وبغداد ، واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ماشاء الله أعواما وقرونا

ومما يحسن ايراده زيادة فى شرف الامام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ليسأله فى شىء دق على فهمه دركه فأجابه فيه أحسن جواب ، ولشدة سرور الرشيد بذلك ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء فبكى أبو يوسف واتجب فلما

أفاق سأله الرشيد . فأخبر الحبر الذى قدمناه حكاية عن أبى حنيفة رضى الله عنه لأم أبى يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى حلقته وقوله لها (سيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج) فبكى الرشيد

يصح أن يقال عن أبى يوسف انه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة رضى الله عنهما ورواه فأدى الامانة حقها ، والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الابدى ، والحياة الطيبة المرضية ، وهو علم الدين المرتبط به كل علم

نبغى أن تكون سيرته هذه مثالا يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم بالكرامة ، ويؤدونه عنهم بالامانة ، ويؤثرون لذة المحمدة به والثناء عليهم بسببه عن كل لذة ، فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم ، وتصح النية ، فتقام الفرائض وتحيا السنة وينصرف الناس من الشك الى اليقين ، ومن الرياء الى الاخلاص ، ومن الغش الى النصيحة ، ومن الرغبة الى الزهد ، ومن الكبر الى التواضع

مثل هـــذه الأخلاق الشريفة لايضيع صاحبها ، ولا يفتقر كاسبها ، ولا يخيب طالبها ، ولا تنحط مراتبها ويصبح المتحلى بها بمنزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدى الناس الى سواء السبيل

أنى لنا بأصحاب هذه الأخلاق حتى يذهب عنا ما تركتها هذا الطيش والاهمال والاغفال واللجاج فيما لافائدة فيه والعناد فى كل شىء

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم ، وأنهم ممتازون بالعقل والفكر . ومشرفون بحرية الارادة فيما يرشد ان اليه

حجبت العقول بغرور النظر الى هذا الظاهر ، فاللهم خلصنا من كل تقليد أبعدنا واغتراب فيدنا ، وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ، ولا ضاقت أبوابها على راغب ، واكشف عن عقولنا غمة الوهم وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم ، وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ، ونقوم بالشكر عليها

سيدنا مالك بن أنس

(رضى الله عنه)

هو الامام مالك بن أنس رضى الله عنه امام دار الهجرة فى زمانه وفقيهها وأحد الائمة الاربعة الأعلام. اختلفوا فى مولده بين سنى ثلاث. وأربع. وخمس وتسعين من الهجرة. وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة

كان أشقر شديد البياض. ربعة من الرجال كبير الرأس أصلع. وكان لايخضب شيبه لما صح عنده من أن عليا كان لايخضب. حسن الهيئة والبزة يكره الثياب الخلقة ويعد ذلك مثلة. وكان نقش خاتمه «حسبنا الله ونعم الوكيل» فسئل فى ذلك فقال: سمعت الله تعالى يقول عقيب هذه الآية «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل» وكان مجلسه مجلس وقار وحلم يحوط فيه المستفهم عن الشيء هيبة شديدة

كان لايحدث الاوهو متوضيء، ولايركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراما للبلد فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لاينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وقضاء الحقوق، فلما كبر انقطع عن ذلك كله واحتمل له الناس ذلك

كان كامل النفس لايزداد مع الخلفاء عن الأدب الذى توجبه عليه الدين قدم المهدى المدينة فبعث اليه بألفى دينار فقبلها، ثم وجه اليه الربيع يطلب منه ملازمته الى مدينة السلام فقال له: قل لأمير المؤمنين المال عندى على حاله وكان يدخل على أبى جعفر وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ورزقه الله العافية من ذلك

وكان شديد الحرص أمينا على العلم قال جرير: ان أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على «موطئه» فقال له: لاتفعل ياأمير المؤمنين فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما

سبق لهم وعملوا به ودانوا ، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديدا ، فدع الناس وماهم عليه

لو أن فقيها من فقهاء هذه الأزمة أقبل عليه أحد أعوان أولى الأمر وأشار عليه بحمل الناس على ما قاله لعدّ ذلك نخرا وعزا وسطا على عموم الناس بهذا القول . وذلك لأنه يرى مصلحة نفسه لامصلحة الدين ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع)

روى عن عير واحد من التابعين ، وأحد القراءة عرضا عن نافع وهو أثبت أصحابه . وروى عنه وحدث خلق كثير من الأئمة منهم سفيان الثورى وسفيان بن عينة . وعبد الله بن المبارك . والأوراعى . وابن مهدى . وابن جرير . والليث بن سعد والشافعى . والزهرى . ويحيى بن سعيد الأنصارى وغيرهم . وكان يقول . « العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم » وكان يقول لا يؤخذ العلم عن أربعة . سفيه يتجاوز الحد ، وصاحب هوى يدعو الى بدعته ، وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس ، وشيخ لا يعرف مايحمل وكان يقول . ماأفتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت . ومن قوله ليس العلم بكثرة الرواية ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب

قال يحيى بن معين : كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه اماما لا يبلغ الحديث الا صحيحاً ولا يحدث الا عن ثقاة الناس . وعن الشافعى رضى الله عنه (اذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك) ولا غرابة فى ذلك فقد قال عبد الله ابن وهب : (لولا أنى أدركت مالكا والليث بن سعد لضللت) وهو أحد الائمة الأربعة فى الأمصار الأربعة . سفيان الثورى بالكوفة . ومالك بالحجاز . والاوزاعى بالشام وحماد بن زيد بالبصرة

ومن فضائله مارواه الترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهم . (يوشك أن تضرب الناس أكباد الابل فلا يجدون احدا أعلم من عالم المدينة)

كان شديد الكراهة للفتيا ومن قوله فيها .(كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب

لهم فتكلموا فى عيوب الناس فصارت لهم عيوب ، وكان عندنا قوم لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس نسيت عيوبهم »

جاء مستقبل الزمان مصدقا للحبر الصحيح السوى الذى لا ينطق عن الهوى فكان سيدنا الامام مالك رضى الله عنه امام زمانه

ارتقت أمانة العلم عنده لدرجة لا تقوى عليها نفوس الكافة فنزل منزلا لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا جاءه رجل ليستفتيه فى مسئلة فقال له « لا احسنها » فقال له « قد ضربت اليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا وتقول لى لا أحسنها . ماذا أقول لأهلى ؟ قال له قل لهم : « سألت مالكا فقال لى لا أحسنها »

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته فاستدعاه الخليفة واستفتاه فى أمر فأفتاه بما لم يوافق هواه وغرضه . فأمر بضربه فضرب ومدت يده حتى خلع كتفه

مازال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام ، وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة حتى كأن تلك السياط حليا تحلى بها وأوصله سماقدره بها

توفى رضى الله عنه فى المدينة فى شهر ربيع سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع وكان واليها من قبل الرشيد عبد الله بن زينب

ان الناظر فى أمر الدين الاسلامى بعين الحقيقة يجد أنه كلما اتسع صاحبه فى وسائله ، وتفرع لحكمه وسر حقائقه اتسع فى حريةالفكر وأصبح [illegible] بدرع الصدق والوفاء والأمانة ، وقبض على زمام الملكات الفاضلة . وأصبح وليس له هم الا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها . ولا يستطيع أن يبيح منها الا مايحل تناوله فقط ، ولو أن جميع أهل العلم جاسوا بعضهم بهذه الخصال ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات ، وحدثوا الناس الى مذاهبهم و [illegible] شرف اندراجهم فى هذا النوع ، وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق [illegible] باصلاح سرهم كما طالبوهم برعاية أجسادهم ، وعرفوهم [illegible] الناس كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر لقامت كلمة الدين خير قيام ، و[illegible] العايات

والعادات ، وحلصوا أسراء التقليد ، وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم

لم يخالف الامام فى فتواه مقام الخلافة الا وهو متحقق ان هدا العمل فى رضاء الله سبحانه وتعالى (وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) فلو ان كل مسئول امتنع ولم يوافق السائل على هواه لرجع جميع المقترفين لهدا العمل عن عملهم هدا . ولكن عظمة السلطان وصولته أنست الناس أمر دينهم ، فأصبحوا يخالفون الشرائع ليؤلفوا قلوبهم ، ويدخلوا السرور عليهم بتحسين فعلهم) فجر هدا الأمر الى أمور فظيعة سيئة حتى أصبح الدين ملعبة عند بعض الملوك ، وأهانوا الشرائع المرعية ، والفضائل المحمية ، وهدا أمر قد علم الكثير من المسلمين حاله ، وقدروا ضرره ، فكم حلت الفتاوى من البلايا والرزايا سواء كان فى المسائل السياسة أو المدنية مما لا حاجة لدكر تفصيله حتى ان أحد سلاطين آل عثمان أوصى بدفن الفتاوى التى أصدرتها له علماء وقته تخلصا من عواقب مافيها يوم القيامة ، « يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله »

محمد بن ادريس الشافعى

رضى الله عنه

هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصىّ

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ثم وصل الى مكة فسكنها وأخد يتردد بين الحجاز والعراق ثم استوطن مصر واتخدها دار إقامة حتى توفى بها عند بنى الحكم

روى عن الامام مالك بن أنس ومسلم بن خالد الزنجى وابن عيينه وابراهيم بن سعد وفضيل بن عياض وعن عمه محمد بن شافع وجماعة غيرهم . وروى عنه ابن حنبل والحميدى وابو الطاهر بن البويطى والمزنى ومحمد بن عبد الحكم وجماعة غيرهم

كان حافظا حفظ الموطأ فى ليال وأخذ العربية من صميم العرب ولزم هذيلا وبقى فيهم مدة يرحل برحلتهم وينزل بنزولهم ، ثم رجع الى مكة وجعل ينشد الاشعار ويذكر الآداب ويروى الاخبار وأيام العرب ، فمر به رجل من الزبيديين فقال له « ياأباعبد الله عزيز على ان لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود اهل زمانك به » فقال ومن بقى حتى يقصد فقال له : مالك سيد المسلمين . فوقع فى قلبه ذلك وعمد الى الموطأ فحفظه ورحل الى مالك فأخذ عنه الفقه

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ، ووصله بهدية لما رحل عنه ، وكان الشافعى يقول . مالك معلمى واستاذى منه تعلمنا وما أحد أمنّ على من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى »

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر وكثر مقلدوه فيها . ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر والبلاد القاصية لا يعرفون حجة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بهم ، ثم أدى ذلك لظهور كتب الخلافيات ووصل الامر الى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين فكان ما كان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين . وعملاء الامة الاسلامية تتلافى للآن أمرها ولا تعان عليه . ولا حول ولا قوة الا بالله

نزل الامام على بنى عبد الحكم بمصر فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة (الفاطميين) وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم الى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب فرجع اليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام وعاد الى أحسن ما كان ونفق سوقه . واشتهر منهم محيى الدين النووى وابن الرفعة وتقى الدين بن دقيق العيد وتقى الدين ابن السبكى والسراج البلقينى أكبر علماء عصره وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء .

﴿ د كر ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل ﴾

قال محمد بن عبد الحكم لزمت التسافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه . كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح

قال ابن عيينة انه كان أفضل فتيان زمانه ، وكان اذا جاء ابن عيينة أمر من التفسير والفتيا قال : سلوا عنه هدا أى الشافعى . وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجى شيخه وهو شاب فى مقتبل عمره : قد آن لك أن تفتى يا أبا عبدالله . وقال يحيى بن سعيد القطان . انى لأدعو فى صلاتى للشافعى لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أحمد بن حنبل ماأحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث الا وللشافعى عليه منة وقال ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته ، وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل ما يستحى أبوك يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى قال صالح : فقلت ذلك لأبى فقال : قل له ان أردت ان تتفقه فخذ بركابه الآخر

كان حجة فى اللغة وآية فى الانساب والاخبار : قال ابن هشام ذاكرته مرة وهو بمصر فى انساب الرجال فقال له الشافعى بعد ساعة . دع هذا فانه لا يذهب حفظه عنا ولا عنك ولكن خذ فى انساب النساء ، فلما أخذ فى ذلك بقى ابن هشام ساكتا وكان يقول : ماظننت ان الله عز وجل خلق خلقا مثل هذا الانسان

وقال النسائى كان مفردا فى ثقته وأمانته ، وقد ألف الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادى كتاب الحجة بالشافعى وأثبته فى الصحيح وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . اللهم اهد قريشا فان عالمها يملأ طباق الارض علما اللهم كما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا ، فكان وجوده رضى الله عنه مصداق قوله صلى الله عليه وسلم

واتصل به أيام محنته القول بخلق القرآن ومن كلامه « كلام الله ليس بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر »

﴿ ذكر بعض حكمه رحمه الله تعالى ﴾

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق . من حفظ القرآن نبل قدره ، ومن تفقه عظمت قيمته ، ومن حفظ الحديث قويت حجته ، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعي كيف أصبحت فقال كيف أصبح من يطلبه ثمان : الله تعالى بالقرآن ، والنبي صلى الله عليه وسلم بالسنة ، والحفظة بما ينطق ، والشيطان بالمعاصي ، والدهر بصروفه ، والنفس بشهواتها والعيال بالقوت ، وملك الموت بقبض روحه

توفى الشافعي فى خلافة المأمون رضي الله عنهما بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم واليه أوصى وذلك ليلة الخميس مسلخ رجب سنة أربع ومائتين ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم وصلى عليه السرى أمير مصر

كان رحمه الله خفيف العارضين أسمر اللون وقد ألف كتاب (الأم) وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه جمع بين صحة المآخذ وبين متانة العبارة ، فهو الأم الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الأحكام

قال الربيع كنا جلوسا فى حلقة الشافعي بعد موته بيسير فوقف علينا اعرابى فسلم ثم قال أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا توفى . قال رحمه الله وبكى بكاء شديدا ثم قال : رحمه الله وغفر له ما كان كان [illegible] الحجة . ويسد من خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوها مسودة ، ويوسع بالرأى أبوابا منسدة ثم انصرف

وهو ثالث الأربعة الأئمة الذين يفتخر بهم جماعة المسلمين [illegible] للكتاب الكريم وتمكن الاستنباط وكمال الفقه وحسن [illegible] المتصدرين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فى المكلفين [illegible] وبهم يهدى الله من يشاء الى الصراط المستقيم

الامام أحمد بن حنبل بن هلال الشيبانى

﴿ رضى الله عنه ﴾

هو الامام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الاصل . خرجت أمه من مرو حاملا فولدته رحمه الله تعالى سنة أربع وستين ومائة فى ربيع الأول ببغداد ، ولم يره أبوه لأنه تركه طفلا نشأ ببغداد فى طلب العلم وخدمته وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ورحل الى البلاد وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين ، فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وسمع من سفيان بن عيينة وابراهيم بن سعد ويحيى القطان وغيرهم . نشأ عفا مستقيما يخاف الله ويخشاه فلا يتعدى محارمه أبداً روى أبو عبدالله قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب وكان الخليفة بالرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب الى منازلهم فتبعث النساء الى المعلم أن ابعث لنا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم فكان اذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبداً حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته وأدبه عند ذكره

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ورحل فكتب عن علماء كل بلد ، وأول من كتب عنه الامام أبو يوسف وكان يقول « أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر » واجتهد كثيراً فى نقل الأحاديث الصحيحة وبلغ ما نقله منها مقداراً عظيما جدا فاق حد التصور وأعجب به معاصروه

كان متأدبا غاية الأدب متواضعاً غاية التواضع يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباه . وكان من فرط اجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشىء ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الانسان له لسان واحد وأذنان ليسمع أكثر مما يتكلم

كان وحيدا فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ كان يصلى العصر ثم يستند قائما الى أصل منارة مسجده فيحتاط به الناس يسألونه الحديث وهو يجيبهم

ويحدثهم عن ظهر قلبه ، والكل قيام على أرجلهم الى أن تجب صلاة المغرب لايفرغ ولا ينتهون

لم يتزوج الا بعد الاربعين حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح فبلغ من العلم ماأراد وكان يقول : كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه . كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد ؟

كأن علم الدنيا كان بين عينيه جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ماشاء ويمسك ماشاء

ومن لطائفه انه سئل عن رجل حلف بالطلاق انه لابد أن يطأ امرأته الليلة فذهب اليها فوجدها حائضاً فقال تطلق امرأته ولا يطؤها لان الله قد أباح الطلاق وحرم وطء الحائض

وكان لايرى وضع الكتب لمسائله وكلامه ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ولدونت فى أسفار ومع ذلك فله المسند صنفه سنة ١٨٠ وهو مائة وعشرون ألف حديث تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ والتاريخ والمقدم والمؤخر ، وفسر جوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير حتى قل أن تقع مسئلة الاوله فيها نص فى الفروع والأصول ، وربما عدمت فى تلك المسئلة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا

روى عنه جماعة كثيرة منهم البغوى ومسلم والبخارى وابن ابى الدنيا وأحمد بن أبى الحوارى وغيرهم .وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جدا تدخل فى باب السعى فى طلب العلم والزهد فى المال وذكر محنه وشمائله

كان امام المحدثين فى عصره ، وكان من أصحاب الامام الشافعى . ولم يزل مصاحبا له الى ان ارتحل الشافعى الى مصر : وقال الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل

دعى رحمه الله الى القول بخلق القرآن (تلك الفتنة التى ايقظها أحمد بن أبى دؤاد فعمت حيرة الخلق وأصابتهم بلاياها) فلم يجب عنها بشيء. فضرب ضربا

مبرحا ثم حبس وعذب بانواع العذاب وهو مصر على الامتناع ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة عشرين ومائتين

كان حسن الوجه ربعة ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع توفى ببغداد سنة احدى واربعين ومائتين ودفن فى مقبرة باب حرب ، وحضر جنازته من الخلق مالا يحصى ، واليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الاسلامية وتعرف اتباعه بالحنابلة

ومقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته فى معاضدة الرواية والاخبار بعضها لبعض واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث الشريف

وكان كثيرا مايتمثل بقول الصديق رضي الله عنه اذا مدحه مادح : « اللهم أنت أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي مالا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون »

نبذة تاريخية

ماذا كانت مصر فى هذه الايام أزمان انتقال الدولة من الامويين للعباسيين وازمان اضمحلال الدولة العباسية ؟

كانت على غير انتظام فى حالها ولا ثبات فى أمرها ، لانها كانت تقوم وتقعد تبعا لأهواء الولاة والعمال لعدم وجود التربية القومية فيها وضعف الرأى العام بين بنيها وكونها فى الوجود فى منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الاسلاف . منزلة تبعدها عن مبارع الدهاء وتبعدها عن مقاصد الديانة . فهى لا أمة تحمى ذمارها بالسيف ، ولا حضرية تعيش تحت ظل الشريعة أو القانون وانما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام وهى عندها أعظم من كل ارادة ، لانها كانت لا تطيق مقاومتها أبدا

كان المصطنعون يتفانون فى تنفيذ ارادة الحكام مهما كانت حتى تذبذبت الامة وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير وأصبحت مسخرة ترضى بالخضوع

للمتغلبين عليها من الولاة الذين لايزرعون فيها الا ماتنزع اليه طبائعهم . ولا يوصلون اليها من جاه الخلافة ، وعزها ، وأدبها . وارتقائها الا بمقدار رقة مستتبعهم . ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الأموية ولامن المنافع العمومية فى أزمان الدولة العباسية بمقدار ما كان ينتظر ويظن من خلافة كخلافة الوليد بن عبد الملك المروانى الذى وضع يسراه على العرب ويمناه على الشرق ، أو خلافة كخلافة أبى عبد الله المأمون العباسى الذى أحيا معالم العلوم كأنما هى فى جو آخر مخالفة للناس فى العوائد والأحوال مع ماطبعت عليه من السكون والدعة قانعة بما فيها من الثمرات مؤثرة الراحة على المتاعب لا تتعدى مبلغ قوتها وعوائد من قبلها

دخلت عليها سنة ٢٥٦ وفيها أحمد بن طولون عاملا للخلافة العباسية فوسوس له شيطانه حتى نادى بالاستقلال وسطا على الخلافة بسيفها وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالى مصر وغيرها واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز المعتضد عنه ووقع الصلح بينهما

وقد تسامع الناس بالذى جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث واقبحها أثرا وموقعاً فى أمر الدين وجماعة المسلمين . مزقت الخلافة العباسية كل ممزق ، وفتحت عليها باب التجرى والتعدى . وحذا حذوه العمال فاستقلت جهات بخارى وصارت تدعى (المملكة السامانية) وجهات افغانستان وهم نحو من ستة ملايين أو ثمانية من سكان الجبال والبوادى جلاد شداد وصارت (المملكة الغزنوية) ثم صارت (الدولة السلجوقية) وتبعهم (سيف الدولة بن حمدان) بالموصل هذا فى آسيا . واستقل فى أفريقيا بنوا الاغلب وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر الى حدود الغرب الأقصى . واتبعوا مسلك ابن طولون حذوك القذة بالقذة (١) فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الاطراف مقطوعة الأوصال مفتوح عليها باب لا يسد ، وكان هذا من أهم انحطاطها وأكبر الدواعى التى أطمعت اخصامها فيها

تنزع فى بعض الاحايين نفوس بعض الولاه أو العمال الى ... لمثل هذه

---

(١) القذة بالضم ريش السهم جمعه قذذ

العمل (الاستقلال) دون أن تكون الامة والبلاد مستعدة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده . ولا قائمة بما ينبغي لها أن تقوم به من العوائد التي تحفظ كيانها بعد هذا التمرد

الاستقلال هو عبارة عن قيام دولة فان وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه ، لان المستقل يلزمه أن يكون ظاهرا حتى على ذات الشوكة التي يريد أن ينفصم عنها وينادي باستقلاله دونها ، لذلك تحاماه الكثير من أرباب الأمر وأصحاب الملك والسلطان مخافة أن ينقلب الأمر فتقع البلاد والعباد في شر غير منتظر . نذكر منهم الامير عبدالرحمن الداخل ، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، دخل الاول بلادالاندلس وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم وبعد أن انقاد له الامر سمى نفسه بالأمير ولم يدع (بأميرالمؤمنين) لاهو ولا أحد من بنيه لحد الثامن تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى العرب وملك الثاني مصر فاتحاً وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قرونا وأعواما

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك فلم يكسبها الرقي والفلاح والنجاح الذي أصاب غيرها منه كأن الامة لم تستعدله بعد ولم تختمر فيها مادةالمعاونة مع صاحب الملك بالرأي والمفاوضة فيه ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة ، فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له في أي صنف من أحوال ملكه ، شأن الكثير من الممالك الاسلامية ، فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم غير متهيئة لعمل فاستسلموا لمن بعد ، وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ، ورضخوا لكل حاكم ولو لم يكن بينه وبين الحكومة معنى مطلقا كالدولة الاخشيدية وكدولةالمماليك وأشباه ذلك ، ثم صاروا ملعبةفي يد الفاطميين الذين سوالهم سببا تحدث ضروب المحال كما هو معلوم

(يضحك الرجل المجرب اذا كان بعد هذا يرى في بعض الأندية أفواها تتلمظ ، وأنوفا تتنسم مما يقرب من هذا المثال يغترون بالمرائي والظواهر التي

بهرجت بها الأعداء ليقطعوا الوصلة بالاعيب السياسة وأساليب المكر والدهاء « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » . على أن فى التاريخ شواهد محفوظة وأمثال مضروبة تكفى الناظر لو نظر وعلم ماهو فيه من نعمة الارتباط لو قام بتسميته وسعادة الوحدة والائتلاف لو انه يرعاها وانها لو تمت لكانت من أجل النعم وأسنغها)

سرى سوء الرأى فى تلك الأيام فى الأمة المصرية حتى عجزت فى ذلك الوقت عن إقامة نظامها فى خاصة نفسها ونظام عائلاتها فى ضرورة معاشها ومهنها فما الظن بها فى سياسة النوع الانسانى ، وأنى لها بامضاء الأحكام واصلاح السائلة وحمل الناس على مصالحهم وما تعمهم به الفائدة فى المعاش والمعاملات نزلت مصر فى الأخلاق منزلة يظن الباحث فيها أنها محجوبة عن الحق ، لأنها وهت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر والتخلق بأدب الدين ، وأصبحت مركزا للقلاقل وتعكير الفكر ، وتمكنت اغلال الاستعباد فى أعناق أهلها حتى قبلوا المذاهب العديدة التى قامت بها أصحابها فيما بينهم وكانت من أكبر أسباب التفريق .

أنظر لما حكم به عليها ذلك الفاطمى « المعز لدين الله » على الغيب وهو فى أقصى المغرب من الضعف بسبب الفجور الذى كانت فيه باستطلاع لطيف ، وهو مفارقة أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة ، وينشأ عنه القوة العاملة

قال المقريزى رحمه الله فى خططه عند ذكر الخلفاء الفاطميين : ان أم الأمراء والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعنى والده المعز وجهت من المغرب صبية ابتاع بمصر مع وكيلها وكأن ذلك كان على سبيل التجسس لمعرفة أخلاق البلاد والعباد فعرضها بألف دينار فحضرت اليه فى بعض الأيام شابة على حمار وساومته الصبية بستمائة دينار (فاذا هى ابنة الاخشيد سلطان مصر) بلغها خبر هذه الصبية . فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمع بها فعاد الوكيل الى المعز وأخبره بما وقع فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز : انهضوا الى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء . فان القوم

قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشترى جارية تتمتع بها . وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فقالوا : السمع والطاعة ، ونهضوا وكان الفتح . ثم توالت عليها الخلفاء الفاطميون حتى كانت مدة الحاكم فوقع منه مالم يكن لاحد فى حساب

أنظر لهذه الحادثة ، وسلط عليها قوة الفكر ، وتناولها سطوة العقل ، واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار تعلم وتتحقق انه لاسبب لهذا الاحتلال الذى نفث علينا سموم الدسائس ، وأثار فينا الفتن والوهن ، ومكن الاراجيف من العقول ، وفتح مجال الشر ، وأقام معترك المطامع ، وجعل البلاد مهبط البلاء إلا مفارقة أدب الدين والذهاب فى أثر التمدن الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التى لارابطة لها ولا وصلة بينها وبين عصمة الاديان . وفى هذا ذهاب الغيرة وضعف النهضة الشريفة الانسانية فاذا قيس حاضر على ماض فليعلم ان تمكن الاعداء من البلاد وضعف النفوس عن مقاومتهم لم يكن له سبب الا هذا ، لان الانسان لايذود غيره عن حوضه بسلاحه الا وهو عالم بشرف ما فى ذلك الحوض من مال ونفس وعرض والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على مالا يعلم والفرار من قرار الكمال حتى يحتجب عن الحق لانه لايدرى كيف يكون فى رقى وصلاح حال ولا الى أى طريق يذهب فاللهم اهدنا سواء السبيل

ألمعنا فى المدة السياسة التى مضت الى ما كان من حال مصر ، وما جرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاحتلال والفجور الذى ألم بأهلها . وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثير من المؤرخين وما تكلموا به من اثبات نسبهم أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى ، فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ماقاسموا به بنى العباس فى ممالك الاسلام ، بل كادوا يلحون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ، واستمرت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة فتحوا فيها البلاد واستخدموا العباد واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخيمة

التى هى من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين الله) ولذلك فنحن ذاكروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية لهذه العلقة ولما اتصف به أيضا من الخلال والخصال العربية والحزم والعزم

المعز لدين الله

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى أبى محمد عبيد الله العلوى الحسينى ولد بالمهدية من أفريقيا حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب وكان ممن يهتف باسم مصر والاستيلاء عليها ، وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا ، وقد وافق ذلك موت كافور الاخشيدى (صاحب مصر) فاختلفت فيها القلوب ووقع الغلاء وتتابعت الشدائد وحصل الأدبار وعجز رجال الدولة عن إدارة الأمور واختل حال الاقاليم المصرية وبلغ له تفصيل هذه الأحوال السيئة وهو بافريقيا من تلك العيون التى كان أركاها فى طلب حياتها ، فسير المعز القائد « جوهر » غلام والده المنصور فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فى جيش كثيف للاستيلاء عليها فلما بلغ من فيها من عسكر الاخشيد أمره واتصل خبر مسيره بهم هربوا عنها جميعهم قبل وصوله فدخلها واستوطن رحابها آمنا مطمئناً واختط القاهرة بقصرها واستقدم العزيز بالله من الغرب فقدمها فى شعبان واقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وأذن فيه (حى على خير العمل) (١) وجهر فى الصلاة « بسم الله الرحمن الرحيم » (١) هو أول ما أذن كذلك بمصر

ابتدأت هذه الدولة (العلوية) بأفريقيا بدعوة أبى محمد عبيدالله أول من ولى منهم نحواً من سنة سبع وتسعين ومائتين ودخلت جيوشها (مصر) سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على يد (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين . وهذا سعت

(١) هما من رسوم الشيعة وشعائر مذهبهم

أ كناف مملكة هده الخلافة وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب ، ومصر والشام ، وبعض أعمال العراق وطالت وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة فملكوا مقام ابراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة

كان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية منصتا لطلباتها ، فلما قدم مصر ساس الأمور ودبر الأحوال ، ولم يأل جهدا فى الاصلاح فصلح حال مصر عما كانت عليه وزهت بالقاهرة وازينت بقصره فيها ، وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ومواضع السكنى اللائقة بالخلافة وعظمتها

اتسع نطاق العمارة فى أيامه فالقاهرة مقره برحاله وعسكره وعليها سياج من جلال . والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الارزاق والبضائع الصادرة والواردة ، ومحل سكنى الاعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع ، وكلما يلزم و يليق بحال هده الحضارة والعمران

دخل بلاد مصر سائح عظيم من الفرس يعرف بالناصرى خسرو والف فى سفره رحلة سماها (سفر نامه) يقول فيها انه لو وصف ما فى مصر من آثار السعادة والثروة لكدبه الفرس ، وكيف يصف مدينة قل أن يوجد لها فى عهدها شبيه . لها خمسة أبواب كل باب آية فى صخامته وفخامته وهندامه يعجز الحاسب فى تقويم نطامه وأعلى البيوت والمنازل ساهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع يتوهم الناظر اليها من حسن نظامها انها مبنية بأحجار ثمينة والمساجد والوكائل والحمامات والدكاكين مما يعد بالألوف المؤلفة اه

والدى يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الاخبار الماضية ، والواقف على تنطيم قصر المعز وما كان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب يعلم مقدار ثروة الدولة وقوة هده الخلافة ونفوذ نصر المعز وشدة ادراكه

كان هدا القصر كعبة فصل يحج اليها القصاد والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهر قوة السيف برجاله وأمرائه ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك وأبهة الخلافة ولو مار

القصر وملحقاته من الحلى والزينة والأمتعة والفرش والثياب والذخائر ، واحتياجات العسكر البرية والبحرية من سلاح وسود وخيام ، وما يتجمل به الخليفة وخواصه وسائر رجاله وأتباعه ، وما ينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حدا لاتبلغه العبارة ، وخزانة الكتب التى اشتملت بحكايات كثير من المؤرخين (تحاكى قوة الاجماع) على ألف ألف وستمائة ألف كتاب وفيها من غرائب الدهر وعجائب الزمان مالا يحصى . قال المقريزى : دخل هذه المكتبة أحد السواح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيـــه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها (أشبه بجغرافيا) وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير فقال : يكفيني من عجائبك هذا . ومن جنس هذه الاعجوبة الخيمة التى فاقت جميع المضارب والخيام المسماة (بالمدورة) كانت تضرب فى المحافل والرسميات تقام على فرد عمود ودائرتها خمسمائة ذراع وحرقها وحبالها وسدتها تحمل على مائة جمل وقدصور فى رفرفها صورة كل حيوان فى الارض . فالقارىء يجرى الغائب من هذه النفائس على ما عرف ويقيسها على ماشهد فيتبين ما كان عليه القوم من الرفاه

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد وحسبك الازهر الازهر والمقام الانور ، والمصلى الاطهر الذى جعله الله محتلى العلم والتعليم . وخصه بالطمأنينة مع أن يكون موضع الارشاد لسنة نبيه الكريم ودينه القويم هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة (لو كان ما اشتمل عليه من المنافع والمزايا حصل لنا بالسماع وهو غير واقع تحت نظر كل واحدمنا بالفعل لعددناه أعجوبة الزمان) مأوى العلم والعلماء ، وموطن الفقه والفقهاء ، وكل واحد من المشتغلين وهذه مايكفيه من الرزق الناص على قدره ومقداره والتعليم فيه مباح بأبوابه . [illegible] تأوى اليها طلبة العلم الغرباء ، فلا يلحظه النظر الا وهو معمور [illegible] ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث [illegible]

ومجالس الوعظ ، فالداخل فيه يجد من الانس بالله والارتياح وترويح النفس مالا يجده فى غيره ، ثم لاتزال عماريته تزداد وشهرته تتعاظم حتى قصدته الناس من الآفاق فترى فيه حلقاً من جميع بلاد الاسلام تقصده لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين مابين مؤلف ومدرس ، وفيه الألوف المؤلفة من المجاورين من الطوائف المختلفة كأهل الحجاز واليمن والهند والسند والسودان والجاوه وبغداد والمغرب والشام والاتراك والاكراد وغيرهم من أهل مصر من جنوبها وشمالها فهو أشهر بقعة بعد المساجد الثلاثة ، وياله من مدرسة كبرى وبقعة ناهضة يزول بها الجهل ويحلد فيها العلم وتتأدب بواسطتها النفوس وتتسع القرائح وتتنبه الفطن وتروق الأفكار وتتعين الآداب وتطهر الأسرار ويكتسب الشرف ويعظم القدر ، لو كانت تلك الشموس والاقمار التى تشرق فى أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم خارجة عن مداراتها الاولى متأملة الى درجة أحياء المعارف والعلوم وروبقها فى غير هذه البلاد غير ناظرة اليها نظر المستنكف آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف بما لايمس عقيدة ولا يخالف ديناً . اذاً لأصبحت رحابه قبلة لكل طالب وكعبة لكل قاصد ، بل يكاد الانسان يحلف غير حانث ان الازهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها فهو مرضعة العلوم وأقرب مورد يمكن أن يستقى بمعارفه القطر ويظهر لكل انسان براعة أهل هذه البلاد ولكن

ما يشاء ربك يفعل قادر جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنا على غير هــــدى وتفرقـــا على غـير تراض
وتقارضنا شـهادات التقى ثم صرنا لزوال وانقراض
واستعارت صحة أجسامنا واستعانت بمودات مراض

(عود) كان للمساجد فى أيامهم رسوم وأحباس ، ولها ديوان مفرد وقضاة وعلماء تتفقد حالتها ، وهم أول من أقام الدرس بمعلوم . ثم فى مدة العزيز عمل الوزير ابن كلس مجلساً فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه فقه على مذهب الفاطمية

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والاعياد على طول السنة ولهم فيها من البر والخير والصدقات والاحسان فى الايام التى يعينونها والليالى التى يبينونها ، ثم تطرق الخلل الى سياستهم وكأنما كان ذلك لتعمقهم فى الرافضية أو لالحاد بعضهم (كالحاكم) فاندفع ذلك فى دعوتهم وجاء الطعن فى منتسبهم متمما لذلك ، فتغيرت تلك الأحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الأخيرة تارة بالصلاح وتارة بالفساد الى أن ألحت الحوادث وتوالت المحن فغيرت تلك الوجوه الحسان وأزالت معالم الحسن والاحسان وبدلت رونقها من الجمال واعتاضت عنها بالاطلال والتلال . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله يرى أن همة أغلبهم كانت متجهة الى اتساع دائرة العمارة والتجارة . وبسبب ذلك يصح للمؤرخ أن يعتبر القاهرة فى مدتهم مركزه جدا فى التجارة والصنائع والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ولا حصلت لها من بعد . والمبانى الضخمة المشاهدة التى لا تقوم الا بالأموال الجمة . والتقدم فى صناعتى البناء والتصوير كما تراه فيما بقى من ذلك من الأبواب كزويلة ، والفتوح ، والنصر ، ومن المساجد كالحاكم . والآثار تدل على علو قدرهم وترفعه هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم ، وكذلك كانوا فى [illegible] كبهم [illegible] واحتفالاتهم فى مواسمهم مما لو أراد الانسان معرفته تحدد فى خطاه من كتب التاريخ

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى [illegible] وأدت لقدوم السلطان صلاح الدين بن أيوب الى هذه البلاد لاطفاء الفتن التى [illegible] وأطفأها . وما عاد الى البلاد الشامية حتى هاجمها العساكر [illegible] لقدومه لمحاربتها وكان ذلك ، ثم وجد فى حال البلاد اختلالا لا [illegible] الا اذا سهر عليه الانسان بالتدبير المقرون بالاصابة وحسن الرأى [illegible] بالاحاطة . وكأن البلاد سئمت ما هى فيه من المصائب المتوالية فلم يلق فى [illegible] العاضد من الخلافة واعادة الدعوة للعباسيين أقل معارض [illegible] حكم البـــــلاد بنفسه

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تغيرت بتغير الدولة كل الأحوال حتى فى المأكل والمشرب ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

هذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخين وتكلم الكثير (١) فى نسب القائمين بها وابتعادهم عن آل البيت رضى الله تعالى عنهم وادعوا أنهم معروفين فى اليهودية (نعوذ بالله من هذه المقالة) حتى عمل فى أيام الامام القادر العباسى محضرا يتضمن القدح فى هذا النسب وشهد فيه من شهد من أعيان العلويين خوفا وتقية وغيرهم محاراة وتزلفاً ، وزعم الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ أفريقيا ان أصحاب هذه الدعوى من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الاسلام نفاقا وما زالوا يتربصون الشر بجماعة المسلمين قصاصا لما وقع لاسلافهم من تسفيه أحلامهم ، فقامت جماعة منهم فى آخر خلافة الامام على رضى الله عنه وأحدثوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتسكيك ضعفة العقول فى الدين وآخرون ارادوا استئصال الأمر بالقوة ومنهم هؤلاء

والذى عليه اهل التحقيق ان بنى نسبهم عن نسب آل البيت مجعول باحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفا اليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفننا فى التسميات بعدوهم) بواسطة علماء السوء لما توفرت شيعتهم وانتشروا فى القاصية بدعوتهم وما زالوا كذلك والخلفاء قانعون بهذا السبب حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان ، وهذا مرض غريب وداء عجيب يصيب الكثير من الناس ويقع فى الافراد كما يقع فى الدول فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه وهم فى عماء عما يدبره لهم من المكايد ، ثم يزيد الحال ويتسع فتراهم يحسون على الشاتم ويغدقون على الطاعن ويكادون يسحلون هـــذا النهج الرائف الذى تريد أرباب الاغراض وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم وكله فرية وزعم ، وتبلغ بهم السذاجة الى انهم يستشعون بهذا الباطل ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص وفى سطوتهم من الانترار باد الكثير من دول الاسلام وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب

---

(١) مثل شيخ النظار أبى بكر الباقلانى

وهو تصغير الأعداء في نظر أولياء الأمور والاستهانة بهم والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة والتعظيم له حتى يظن بعض السذج منهم أن وجود عدوه في دار الحياة انما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن ، والا لحياته في قبضة يده ، ثم لا تمر عليهما الليالي وتتداول الايام حتى يصبح والأمر ذو بال وعدوه قد أفسد عليه حاله ويتحقق أنه كان غارقا في بحار الخديعة وانه أصبح بين أمرين : إما خوض المنايا لهذا العدو العنيد ، أو التجاوز له عن الأرض التي ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع بهذا ذهب ماذهب من فتوحات الأمويين وأملاك العباسيين وبلاد وأراضي الدولة العلية العثمانية من الروملي والاناضول وغيرهما ، وبهذا السبب أيضا ذهب السودان المصري وتحسمت في هذا القطر فتنته الاخيرة

سمعت ممن أثق به ان كل تلغراف كان يرد لاولياء الامر من حكام السودان حال الفتنة مبدوء في أوله بقوله (بفضل ولي النعم لايكن هناك ما يكدر الخاطر وانما . . . الخ) ومازال الحال كذلك حتى جاء تلغراف حصار الخرطوم مبدوءا بهذه المقالة أيضا ، فليت الناس يصرفون بعض الهمم على أمثال هذه الغوغاء في أوائل ظهورها ويتركون الغش فتكفيهم مؤنة القتال والجدال في أخرياتها خصوصاً في هـــذا الوقت الذي ينبغي أن يكون للانسان فيه أربع عيون لكثرة الدسائس وازدياد الاعداء الطاغين على ملة الاسلام الناقمين عليها وعلى القائمين بأمورها وليس بعد ذلك النقد على من يكون ذابصيرة ثاقبة لان أحوال أولئك المنافقين تبدى ظاهره للعيون الصادقة .

ومهما تكن عند امرىء من خليقه وان خالها تخفى على الناس تعلم اهـ

﴿ تنبيه ﴾ الى هنا انتهى الكلام على الخلافة في المشرق مابين الشام وبغداد ومصر وسنبدأ بالكلام على الخلافة في المغرب مبتدئين بخلافة عبدالرحمن الداخل

* * *

عرف القراء مما كتبناه انه لما نزل ببني أمية مانزل بالمشرق وعلبهم الدهر على أمرهم مثل غيرهم من ساسة الدول وسلاطين الزمان وقتل آخر خلفائهم

مروان بن محمد بن الحكم طلب بنو أمية بطن الارض بعدظهرها والدهر حسود لمن يسود ولكل هبوب ركود ، وكان ممن أفلت عبدالرحمن بن معاوية خرج من الشام سنة ثنتين وثلاثين ومائة وظل سائرا فى افريقيا ينتقل من مكان الى مكان حتى وصل الاندلس بعد ست سنوات ودخلها سنة تسع وثلاثين ومائة وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاده الملازم لهما التوفيق والسعود ، وأصبح رأس الدوله بعد ما كان فيه من قنوط الهارب ويأس المطلوب من عدوه القادر ، وارتقى فى المغرب لمقام جدد فيه ماطمسه الزمان لبنى مروان فى المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز ، وأحيا مااندرس من معالم الخلافة ، وجدد مانسى من اسمها

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الأموية بالأندلس بعد أن فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الاسلامية ببغداد

عبد الرحمن بن معاوية

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (المعروف بالداخل) لقب بذلك لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان الى الاندلس ، وهو رأس الدولة الأموية الاندلسية كان شجاعا هماما كريما حليما ذا حزم وعزم أصهب خفيف العارض بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتجنون فيه ملكا ويرون فيه علاماته آية من آيات الله تعالى أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ، ويقيم ملكا أدبر ، ويركب من الاخطار مايركب ، ويقصد الأندلس من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا انصار ، فيغلب أهلها على أمرهم ، ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم ، وينقاد له الأمر ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه . آية من آيات الله انه مع هذا الملك الضخم الذى أتيح له ، والدولة المتسعة التى كان فيها لايسمى نفسه بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى

العرب وتبق هذه التسمية الى الخليفة الثامن من بنى أمية بالأندلس ، حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ماحدث . ووقعت غلبة الأعاجم . انظر لهذا الجد والاجتهاد ، وتأمل لهذا الميل بارتباط كلمة الدين والرغبة فى عدم قطع دعوة آل العباس مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

أفلت هـــذا الخليفة ، وخلص الى المغرب . واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم ، وبثوا له دعوة ونشروا له ذكرا ، ووافق قدومه انكشاف يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الاحن بين اليمنية والمصرية) ، ولم يبق معه من الجيوش مايلقى به الأمير عبد الرحمن ، فانهزم فى ظاهر قرطبة ثم لجأ الى غرناطة فتبعه الأمير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة . وكان ذلك . ثم أدرك الأمير عبد الرحمن بالأندلس (عبد الملك بن عمر المروانى) وكان بمصر . فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، فلما وصلها عقد له الأمير عبد الرحمن على أشبيلية

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذى عاهده ونكث وخرج . فسير الأمير للقائه (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور . فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ، ثم اغتاله أحد أصحابه . وبعث بقتله الى الأمير واستقام الأمر واستقر بقرطبة ، وبسط قدم الأمير عبد الرحمن فى الملك

أسس هذا الأمير بمفرده الدولة التى بقيت . اهـ الى ما بعد المائة الرابعة

صعب المراس. فمازال به حتى أوجبه الى المداراة والموادعة بالسلم، وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الاندلس) من حلية الملك ماأرهف به سيف عزه بسلطانه وحلك أهله بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالاداب السلطانية، فاكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة المثلى، ثم دون الدواوين وجند الأجناد وفرض الاعطية وعقد الالوية وأقام للملك آلة وللسلطان عدة اعترف بعظمتها أكابر الملوك حتى حذروا جانبه وتحاموا حوزته، ومازال يمارح فى معاملة الملوك التى تجاوره بالعنف مرة وباللطف أخرى حتى دانت له البلاد واستقل له الأمر فيها، وظهر له ظاهرها وخافيها، وادركت اعداؤه ماهو عليه من عظيم القوة مآلا وحالا. وعلمت ان لله رجالا

رفعت الأمير عبد الرحمن قوة الفضيلة، وصدق الحس، وبعد الغور، وسعة الاحاطة حتى أن مناظره الامام أبا جعفر المنصور كان يسميه (صقر قريش) وقد عرف له حقه وعدله، بل استرجحه عن نفسه، وليس لواصف أن يصفه فينصفه بعد قول هذا الامام فيه. قال لجلسائه. (لاتعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى المدفى جميع شؤونه وعدمه لاهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حليته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم، فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهرا لاعدائه حاميا لذماره مانعا لحوزته خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه. ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه) هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلى الانسان بالرجولة والصرامة والاجتراء فتجعله ممدوحا على كل لسان حتى على لسان أعدائه (والفضل ماشهدت به الأعداء)

أصبحت الخلافة الاسلامية بعده خلافتين : خلافة اموية فى الاندلس، وعباسية ببغداد. وكانت سيرة خلفاء الاندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة. سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق، ولم تنزع فيها النفوس للخروج على

السلطان . كان رحمه الله قسطاسا للعدل يقعد للعامة يسمع منهم . وينظر بنفسه فيما بينهم فيصل بالضعيف الى رفع ظلامته دون مشقة ، ويردع الظالم عن بغيه وعتوه . وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم انه غزا فيها بلاد الافرنج (والبشكنس) ومن وراءهم ورجع بالظفر ، ولكن أين هذا مما كان يريده من اعادة دولة مروان بالمشرق كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية

استقر بقرطبة وهو الذى أدار عليها السور ، وأقام بها المبانى الضخمة فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والاعمال العجيبة ، تحج اليها السواح من كل جانب لايرفعون نظرهم لشىء من عجائبها الاويرد اليهم طرفهم متئسا يعييهم أثرها عن حذو تمثالها بتمثال ويعجزهم عن أن ينحذوه بمثال

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الأمير وتفتخر به فخرها بعمل من لايساويه من أهل تلك الملل الأخرى ، فان فى أفعاله جميع الضروب والأشكال التى تقصد فى المنافع كسعادة الأمم وتربيتها ، واقامة الدول وحفظها من الاختلال ولو أن رجلا اتصل بدار وهو من غير أهلها ، وقدر على أن يملكها منهم وأن يستخدمهم لذاته ، ثم ينظر فى وجوه سعادتهم فيدنيهم منها ، ويسهل لهم أبواب الخير حتى يعيش معهم ويعيشون معه فى أرغد عيش لعد ذلك عملا عظيما ودهاء كبيرا ، فكيف بمن يفعل ذلك بأقاليم حشوه قوم جلاد شداد ، وقد أحاطت به دول فى غاية مايكون من القوة والقدرة ؟ اللهم ان هذا من أعجب العجب !

يدهش الانسان سمو هذه الغايات الشريفة التى مهما طوتها الايام وأخذت من زينتها لاتزال محلا للمناظرة وموضعا للمباهاة ، تبدى زينتها وتباهى بنفسها حتى يذعن لها العدو والمعاند والمنكر الجاحد ثم يدهش الانسان من تلك الحوادث التى طرأت على هذه المدينة العظيمة حتى أحالتها الى همجية ، بل أبادتها من يد أهلها

كل هذا انما نشأ من عدم رعاية خلفاء الاسلام لحفظ آثار بعضهم ، وانهم

لا ينظرون لهـا باعتبار أنها من عملهم ، بل يفرحون بزوالهـا وحلول الخراب فيها ، لتنسى الناس بذلك أسماء المشيدين لهـا كأنما أولئك كانوا من أشـد أعدائهم . أما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الاسـلام من على وجه الأرض وعلى الخصوص ما كان منها فى هـذه الاقطار عـا اتحـدت الالسنة على أبهتـه وضخامته وجلالته

الحاكم أبو الامة والـكل عياله ، والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ، ويدفع الوالد لاداء حق ولده ، وهو طاهر اليد من نعمته التى أنعم الله بها عليـه فتتقوى أركان المملـكة ويعظم جسمها وتتناهى فى العمران بعظم ثروتها وتوفر أعـدادها واتساع بلادها ، فتسعد بالصلاح والاصـلاح ، ويغمد بسر العدل والانصاف ذلك السيف الفتاح . فاللهم هيىء لنا الخير ، وافتح لنا أبوابه ، وأسبل علينا من فضلك وعنايتك ماييسر لنا صعاب أمورنا ، واهدنا وارشدنا الى خير العمل ، حتى ندرك المعنى الذى به تتم الصالحات آمين

الحكم بن هشام

هو الحـكم بن هشام بن عبدالرحمن ثالث من ملك الأندلس من الامويين . تولى بعهد من أبيه هشام بن عبدالرحمن الداخل

كان هشام والده يذهب بسيرته مـذهب عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، فكما أنه كان يبعث نقوم من ثقاته الى الـكور فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف أحـدهم أوقع به وأسقطه وقاصه كان متفقدا أيضا لحال أبنائه ، ومن يظن انتهاء أمر المسلمين اليهم من بعده . وهـذه خلة من خلال عبدالرحمن الداخل ورثها أبناءه وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الامر ، وبين لهم مزية السؤال عنهم وعدم اهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم

لذلك نشأ « الحـكم » منشأ حسناً فـكان فى معاليـه صاعـدا ، وفى مراقيه سامياً ، واستولى عـلى شرف التأدب . فـكم من مطالب لدواهب المجـد والفخر أدركها ، ومغانم من عوائد الحمد والتشـكر تحولها

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل ، وأعد ما استطاع من القوة ، فاستفحل ملكه وسد مكانه واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وغلمانه وحده على مابعته ومشايعته فباشر معهم الامور ثم حدثت فتنة بينه وبين عميه اغتنمها العدو واعتدها فرصة وقصد برشلونه فامتلكها ، وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونها بسبب فتنة الاقارب (وكذلك يفعلون)

ثم بعث الجند الى بلاد الجلالقه وأثخن فيها ، فخالفهم عدوهم الى المضايق فرجع على التعبية وظفر بهم ، وخرج الى بلاد الاسلام ظافرا

يقال عن هذا الأمير انه كان فى صدر ولايته منهمكا فى لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحى بن يحي الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت الفقيه وغيرهما ومازالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعه الله : العلماء فى ناحية والامير فى ناحية . ثم انتهى الامر بعد قتل وقتال وتغريب وتشريد

هذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الامير لعين أعيان دولته ، وخيرة أنصار دعوته . ولكن انظر لحال العلماء ومعاملتهم لامرائهم ، وتقويمهم اعوجاجهم بالسيوف تجد أن تلك موعظة يجب النظر اليها بعين الاعتبار ، وأمثوله تستحق أن تحفظ اعتدل بعدها حال الامير وازداد تخلقه بالاخلاق الحميدة واستمر على الطرائق الرشيدة وأوضح له الله السداد وأنار مهاجه وعرفه بمهوى زلته

دخلت عليه سنة ثنتين وتسعين ومائة فجمع (لدريق بن قارلو)ملك الفرنجه جموعه وأغار بها على بلاد المسلمين ، وسار الى حصار طرسونه فبعث الحكم ابن عبد الرحمن بعسكره فهزمه باذن الله وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا . ثم كثر عيث الافرنج وعبثهم فى ثغور وحصون الاندلس و «الحكم» من طرف ورجاله من طرف آخر يثخنون فى القتل والقتال حتى عاد الى قرطبة ظافرا

ثم فى سنة ٢٠٠ بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الافرنج فأخذ عدة حصون وأقبل عليه (اليط) ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين

هو أول من جند الاجناد واتخذ العدة ، وكان فحل بنى أمية بالأندلس

وأشدهم إقداما ونجدة . قال بعض المؤرخين : انه كان يشبه أبا جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيده ، وتمكين الدولة وتشييدها وقمع الاعداء . وكان يحب الخير ويعين عليه ، ويراعى صنعه ، ويسمى غرسه ، ويسبغ نعمته اذا أولاها ، ويتمم عارفته اذا أسداها من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواساة أهل الحاجات والفقراء ، حتى سارت بخبر خيراته الناس ودونتها الرواة

استمرت مدة ملكه ستا وعشرين سنة . قال غير واحد انه أول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة وشأنا وهو أول من جمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وأعد رباط الخيل على بابه وكانت الجياد التى على شاطىء النهر قبلى قصره الفى فرس وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الأمور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالاندلس

ومن أعجب مايروى عنه ان العباس الشاعر توجه الى الأندلس ، فلما نزل وادى الحجارة سمع امرأة تقول : (واغوثاه بك ياحكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيما وأيتما) فسألها عن شأنها فقالت : (كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت) فصنع فى قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتا منها

تململت فى وادى الحجارة مسئداً أراعى نجوماً ما يرون تغيرا
اليك أبا العاصى نضيت مطيتى أسير اليكم ساريا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة فانك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه ، فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاثة الى وادى الحجارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض للعدو كانت؟ فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها وأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد وقال للعباس سلها هل أغاثها (الحكم) ؟ فقالت:

والله وشفى الصدور ، وأنكى العدو ؛ وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره .

فارتاح لقولها هذا

مثل هذه الحدة الآن تعجز أوروبا بأجمعها عنها ولقد أعجزتها فعلا فى مسئلة البوير فلم تنس بنت شفه ، وأبح صوت الشيخ الرئيس كروجر فرط النداء والاستصراخ « وما أنت بمسمع من فى القبور » قبور الشهوات والملاذ التى أنست الناس الفضيلة ومكارم الأخلاق وصبحتهم لا يعرفون شيئاً غير صيانة هيا كلهم فى حصون الجبن حتى أصبح الصدق تقريعاً والنصح والاخلاص تضييعاً ، وكأنك لو نظرت لتاريخ أوروبا والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع الى المنفعة والمغانم بغير نظر الى شرف أو فضيلة

اما لو شئنا سرد الشواهد على أن مدنية أوروبا (بالقول لا بالفعل) لاحتجنا الى تأليف جديد ، ولكن الظن بالقراء انهم يكتفون ببعض هذه الشواهد الظاهرة والاغراض السياسية الكاذبة مما لا يوجد فى بلاد المسلمين أبداً ، لأنهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق وابرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدن العصرى

عبد الرحمن بن الحكم

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاويه بن هشام الاموى هو أبو المطرف عبد الرحمن الثانى ملك الاندلس يقال له عبد الرحمن الاوسط لتوسطه بين عبد الرحمن الأول والثالث

ولد بطليطلة سنة ١٧٦ وتولى الخلافة سنة (٢٠٩) على أثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة وولى الحكم ثلاثين سنة وتوفى سنة تسع وثلاثين ومائتين

كان عبد الرحمن أسمر طويلا ، أقنى الأنف عظيم اللحية ، جازماً قوياً شجاعاً ، جمع الله فيه ما بين لطف الأدباء والشعراء وفضل العلماء ، وشجاعة القواد ومهابة الحكماء ، فكان نادرة زمانه

هذبه أبوه الحكم وعوّده على الجلوس على مراتب الملك والسلطان ، لانه استعان به فى مهمات أموره من الوظائف السلطانية التى تندرج تحت الخلافة ، ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين ، فانفذه فى عظام المهام ، وولاه قيادة الجند فى محاربة الافرنج وتذليل البلاد الثائرة ، فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب والنصر بسائر أمور الحماية والمطالبة بالحقوق ما يكفى لمثل هذا المقام . وحسبك أنه هو الذى أخمد فتنة طليطلة باليوم المعروف بيوم الحفرة المبسوط خبره فى مواضعه من كتب التاريخ

تولى الملك بعزيمة الصلاح ، ومساعى النجاح ، وأولاه الله العز والنصر ، وخص أعداءه بالذل والقهر . فقد خرج عليه عم أبيه (عبد الله البلنسى) ينازعه الملك فلم يلبث أن مات وخلصت الحكومة له فصرف همه لاخماد الفتن داخل بلاده ورد غزوات الافرنج عنها ، ورفع معالم العلم فيها ، وكان له الفوز فى أكثر حروبه ، واستولى على برشلونه وغيرها من البلدان ، وطرد الفرنساويين من قطالونيا

وقف حائلا بين النوائب وبين مملكته ، دافعا عنها احداث الزمان ، آسيا لكلومها ، جابرا لثلومها ، ففى عام توليته أخمد فتنة البيره وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة بوقعة بالس وفى السنة التالية سير جيشا الى بلاد (الية) مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، فحاصرها وأحرق عدة حصون بها ، وغنم الغنائم وعاد بعد ان صالح أهلها على مال كثير

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الافرنج ، ففاز فوزا عظيما وغزا بلادهم مرات . ووفق لاخماد الفتنة اليمانية والمصرية ببلاد مرسية ودانت له ، وافتتح برشلونه مرة ثانية بعد ماانتقضت عليه وهدم سورها ، ثم فتح مدينة باجه واستولى على مدينة طليطلة ، ثم كانت له وقائع كثيرة مع الآسبان فى أطراف بلاده والفرنسويين ، وكان الفوز له فى معظمها مع الغنائم الكثيرة

كانت فى أيامه غزوات النورمنديين (١) المعروفة فى تواريخ العرب

---

(١) أهالى نورمنديا فى جنوب فرانسا وأصلهم من سويد

(بعزوات المجوس أو ظهور المجوس) واختلف القوم فى تواريخ حدوثها وفى تعداد غزواتها ومنهم من جعلها غزوتين والأظهر انها غزوات متتابعة لم تكن ذات شأن فى أول الامر. ثم أقبل النور منديون فى أوائل عام ٨٤٥ مسيحية بجيش جرار فى سفنهم وعاشوا فى سواحل الاندلس ونهبوا (قادس) وظفروا بالمسلمين. ثم ساروا الى اشبيليه فى السنة التالية فخرج اليهم أهلها وقاتلوهم فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا واكثر النور منديون من النهب والسلب وعاثوا فى البلاد وعادوا الى مراكبهم ثم خرجوا منها، وحشد عبد الرحمن جيوشة من كل البلاد، وكانت بين الفريقين حرب شديد فاضطر النورمنديون الى الرحيل عن اشبيليه، ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل ويعيثون سلباً ونهبا الى أن تمكن عبد الرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده

وصلت جيوشه الى مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها عنها وتركوها فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة

كانت الخلافة بالاندلس لا تشبه غيرها من خلافات المشرق، لما يلزمها من شدة الحذر وطول السهر وقلة الراحة ودوام اليقظة، لان غارة جيرانها من الامم المباينة لها لا تنقطع، ولأن المسلمين فيما بينهم (حسم غريب) وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم والتمكن من اعادة أرضهم وملكهم اليهم والحوطة عليهم، وشغلهم أن يعوا متكالبين على الطلب. ومنتهى آمالهم ان يعيدوها كما كانت لا يغفلون عن ذلك أبدا. وليسوا بصابئين فيحتجون الى من يقظهم، ولا لاهين فيضطرون الى من ينبههم. بل مستعدين لذلك تعرض المستميت بعزم الواجد لا المتكلف. ولا يزال حكماؤهم ينصحون به الناس على طول الأيام والناس فاعلون

هذا حال العدو المحارب، وأشد منه حال الصديق المخادع والرصيف المنافق. وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال، فقد انتقض عليه بعض عماله يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد (ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالأندلس) فكان هؤلاء من طرف وحروب الاسبان من جهة أخرى

حتى استقلت ولايتا (أراغوان)و(نواره) عنه . ومع هذا فقد ترك ملكا قويا خلفه عليه ابنه (محمد)

بلع مرتبة تقطعت دونها انفاس المنافسين ، وتضرمت احشاء الحاسدين من الثأى الدى رأبه والشعث الدى لمه ، والعدو الدى أرغمه ، فعث اليه (نوفلس) ملك القسطنطينية بهدية وطلب مواصلته ورعه فى ملك سلفه بالمشرق (١) (تأمل لهذا الحدق فى بدر بذور الشقاق وانظر سهام المكايد النافذة) ود كر له المأمون والمعتصم فى كتابه وعبر عنهما (بأسماء امهاتهما) امتهانا فلاقت هذه الحالة من الأمير عبد الرحمن رجلا خبيرا حكيما فدفعها بدهائه وكافأه على هديته وبعث اليه (يحيي الغزال) من كبار أهل الدولة وكان مشهورا فى الشعر والحكمة فأحكم بينهما وصلة الحب وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر

كان واسع الرزق فى كل شىء حتى فى دراريه فقدمت عن ٤٥ ولداً ذكوراً. وكان أديباً شاعراعالماً بالشريعة وغيرها من علوم الكلام بعيد الهمة . وهو أول من شاد القصور الجميلة والمنتزهات ومهد الطرق وأتى بالماء العذب الى قرطبة من الجبال ، وبنى المدارس وأسس ديار العلم ، وشاد الجوامع الكثيرة وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس ، وزاد فى جامع قرطبة ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه (محمد)

هو رابع ملوك الأمويين بالأندلس ولكنه أول من أقام أبهة الملك وكان محباً للعلماء ، والأدباء جمع اليه ذوى الشهرة من شعراء العرب وذوى الفضل منهم ويعترف الأوروباويون أنه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجداً

لعل عبد الرحمن هذا هو الذى نقل هيئة الحكومة الى مااشار اليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير أن ينسبه لاحد قال فى كلامه على العمران البدوى (وأما دولة بنى أمية بالأندلس فالغوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا . وللترسيل وزيرا . وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان كل فيما

(١) يعنى الخلافة الاموية بالشام التى انتزعها منهم العباسيون

جعل له الخ) وهذا شيء أشبه بنظار الحكومات الآن (ولعله مبتدعه)
دخلت فى مدته صناعة الغناء من المشرق الى الاندلس بوفود زرياب المغنى مولى المهدى من العراق اليها وهو تلميذ ابراهيم الموصلى . فركب بنفسه اليه وتلقاه وأكرمه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعته أهل المغرب وخلف أولاداً وخلفه فى صناعته وحظوته كبيرهم عبد الرحمن ثم انقطع هـــذا الى أزمان الطوائف

وغير خاف ان هذه الصناعة هى آخر مايحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الاوظيفة الفراغ والفرح ، وهى أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه أو تبدله (كما هو واقع بمصر الآن) ولامشاحة فى ان هذا الفن من أجل الفنون . لأنه ينفع المرضى كما ينفع الاصحاء ، وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدن الحديث لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والشعب وان عليه مدار صحة الأمم . لان الفراغ واللذه بعد الكد والعمل لابد منهما والا فالمنبت هالك لامحالة

وهو أول من أحدث النقش فى الخاتم بمزيد عن الاسم فكان نقش خاتمه (عبدالرحمن لقضاء الله راض) وكانت أيامه أيام رغد وهناء على مافيها من الحروب بل الفتن الداخلية ، وذلك لأنه كان يتلقاها بفكر ورأى وثبات جاش وحزم فلا تلبث الفتنة أن تزول ، ولذلك بلغ فى ملكه اتساعاً عظيما وجبى مالا كثيراً وكان طروباً فخوراً بجده وأعماله اللائقة فمن شعره فى ذلك

تدارك بى الله دين الهدى ... فأحييته وأمت الصليبا
ألاقى بوجهى سموم الهجيـــر ... اذا كاد منه الحصا أن يذوبا
فكم قد تخطيت من سبسب ... ولاقيت بعد حروب حروبا

وكان مولعاً بالسماع محباً له وهو أول لذاته شغله عن كثير من المنكرات التى تعظم عليه بتبعتها والحمد لله

لاشك أن القارىء ينسب كل ماهذا الخليفة من الأعمال الخيرية لقوة الدين وشدة العزيمة والبحث عن عواقب الأمور وفرط الروية والتبصر وأساس ذلك

كله العلم والعمل اللذان فتح له بابهما أبوه

باشر فى عهد أبيه الملك فدربه فيه تدريب الحكيم ، فمذ وليه لم يتعثر فى ذيله الطويل ولم يتحمل أبوه مسئولية الخلافة حياً وميتاً بل أبرزه للورى هبرزياً لا يفرى أحد فريه

صرف بصره الى وطنه . وعرف مايجب له عليه . فحدق النظر . واستطلع الخفايا واستجلى الدقائق ، فتجلت له دعامة وجوده وروح حياته فرأى أنه بالفضائل يحيا ، وبالرذائل يموت ويمى ، وباختيار الامناء الا كفاء من الرجال يعز ويغنى ، وبالدخلاء يذل ويشقى

تجلى له هذا المظهر فشعر بأن له شأناً عظيما فى الوجود ، وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون ، فاندفع الى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل فأصبح من أحسن الناس سيرة

وانما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

عبد الرحمن الناصر

هو عبدالرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الاندلس من الأمويين ويعرف بعبدالرحمن الثالث . ولد فى سنة ٢٧٧ وتولى الحكومة سنة ٣٠٠ وتوفى سنة ٣٥٠

وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة نيران المتغلبين بسبب أن من تولى الاندلس بعد عبدالرحمن الاوسط (كمحمد) و (المنذر) و (عبدالله) لم تصافهم جيرانهم ، ولم تهملهم أيامهم ، فلم تطل مدتهم فى الملك، ولم تطل أيديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك ، فاشتغل فى اطفاء تلك النيران ، واستنزال أهل العصيان مدة استوعبت نيفاً وعشرين سنة من أيامه حتى استقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء وفقد الرخاء واشتعال نار النفاق وضيق الآفاق فاذا به بسط العدل المشهور بالسيف المنصور وحقن الدماء المسفوكة وأمن السبل المخوفة وأحرز الأموال المنتهبة وحصن البلاد الخربة وجمع بامامته الكلمة بعد افتراقها ، فهو الذى رفض الدعة وهى محبوبة ، وترك الرأفة وهى مطلوبة

لتلين له الأحوال بعـــد الشـدة ، وتـكسر من شوكتها الحـدة ، والحمد لله على آلائه

ومن الغريب انه كان فى عهد توليته شابا وأعمـامه وأعمـام أبيه حاضرون فتصدى اليها واحتازها دونهم كأن الله هيأه وأعده لمـا أراده من الخـير على يديه لهذه البلاد

هو أول من تلقب بألقاب الخـلافة وتسمى (بأمير المؤمنين) وكانوا من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير كما تقدم الـكلام ، وذلك عندما تحقق أن أمر الخلافة بالمشرق قد ضعف واستبدت على الخلفاء مواليهم والتاث أمرهم على جماعة المسلمين ، وتطاولت أيدى الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من خادمه مؤنس) فظهر بمظهرها فى مجالس الحشـد والحفلة ومواطن الانس والعظمة ؛ مستـكملا شعارها من الا كبار والاعظام والاجلال والا كرام

مدت اليه أمم النصرانية المجاورة لمملـكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والاذعان خوفا على أنفسهم وممالـكهم من سطوى أفـكاره ونخوة تدابيره السديدة وآرائه المفيدة ، فصفا لهم إذ صافوه وأمهم إذ سالموه تحرزا من الوقوع فى اشترا كه ، وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ، ووصل الى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات (قستاله) و(بنبلونه)وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فكانوا يقبلون يده ، ويلتمسون رضاه ، ويحتفون جوائزه ، ويمتطون مرا كبه ، وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسـكر والمواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ، ثم تقام لذلك الاحتفالات الشائقة . وتتلى فيها الخطب الرائقة بمـا يدل على فخامة جاه الدولة وبيان ما يخطبه الغير من مودتها ، ثم يغدق على أولئك الوفود بالعطايا فيخرجون من الحضرة ويرحلون عن البلاد ، وقد اشتد عجبهم ، وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان وعظمة الملك ممـا هو مبين فى مواضعه

سما الى ملك العدو فتناول « سبتة » ونقل « الفرصة » من أيدى أهلها وأطاع بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وفتح طليطلة وقرمونة . واشبيلية وكثيرا من البلاد العاصية والنواحى المستقلة

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما لقى من عنت الخوارج وتمرد العصاة وطمع ملوك الأطراف من المسلمين وقتال أمراء النصارى فى أستوريا وتواره . وملكى لاون أوردينو الثانى وراميرو الثانى . ومحاربة الفاطميين فى أفريقيا بعد ظفرهم بالملوك الادارسه وايغال جنوده فى السودان المصرى ، ومع ذلك فقد خرج ظافرا من معظم تلك الحروب ودوخ البلاد وأخمد الفتن وظفر بالمنقضين عليه

أنظر لما شيده من الآثار وأقامه من علائم المجد مع هذه البلايا والمصائب الداخلية والمحن والفتن الخارجية الملتفة حول كرسى خلافته لا يكاد يلتفت الى واحدة منها إلا وتستصرخه أخرى

يده بيضاء عن العلم والصناعة والتجارة ، فازدادت بذلك شهرته ومكانته ، فهو الذى أنشأ المبانى العظمية ، وشيد المساجد والجوامع والمدارس الفخيمة ، ومن أشهر هذه الأعمال الخطيرة (مدرسة الطب) وهى أول مدرسة نشئت فى أوربا باجماع المؤرخين (والمكتبه الشهيرة) بغرناطة وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الارض أودعها ستمائة الف مجلد ، و (الاسطول) البحرى الذى غزا به أفريقيا

شيد مدينة (الزهراء) وكأنما أحاطها بشعار التعظيم وألبسها رداء التكريم وناهيك ببلدة استدعى لاقامتها وبناء قصره (دار الروضة) فيها عرفاء البنائين والمهندسين من كل جهة فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية وأقيمت على ٤٣٠٠ عامود من المرمر الخالص وصرف فى بنائها ٧٥٠٠٠٠٠ دينار (١) واستغرق العمل فيها خمس سنين

جلبوا اليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور سلفائه ، وأفخموا له تلك المبانى وأعظموها فى نظر كل انسان ففاتت لعلو

(١) قيمة الدينار تساوى نصف لبره انجليزية تقريبا

درجتها ماتقدمها من الآثار . جمعت عجائب البناء وغرائب الاشياء فحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار كانت منتزها للانسان ومرتعا للحيوان ومسارح للطيور . فهى للممالحة والحاجة والفطانة والنزاهة ثم أقام دار الصناعة (١) وجمع فيها من آلات السلاح للحرب مالا يوصف ، وأحيا بواسطتها ميت الاعمال الصناعية ، ثم جلب اليها ماقدر عليه من الخارج أيضا كصناعة العاج والآبنوس والصفر ومواد التلبيس والترصيع والتطعيم بالفضة والدهب التى لا تزال آثارها باقية للآن فى تعاريج أبواب القصر والمدينة مجلبة للحسرات على مواضى هده الايام

همم الملوك اذا أرادوا دكرها — من بعدهم فبألسن البيان
ان البناء اذا تعاظم قدره — أضحى يدل على عظيم الشان

دكرت جماعة المؤرخين سببا لطيفا لبناء هذه المدينة (الزهراء) قالوا ان الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين . وطلب فى بلاد الافرنج أسيرا فلم يجد فشكر الله على ذلك وبنى هذه المدينة (فلله من هدا الفكر السامى الدى صير ماله بين أن يجلب به على الأمة الشرف العظيم أو يقيم لها به الأثر الفخيم)

ما كان أحوج هدا الملك العظيم الى السلامة التامة من جميع وجوهها ليكون متساوى الفخار بين سره وجهره وعالنه وباطنه . ولكن أين تدهب حياة الحوبة الدين ليس لهم شغل الا طمس المعالم ودروس المآثر للأغراض الداتية ، فيهتكون مايحق أن يصان من حرمة الملك ويخرقون مايجب أن يحفظ من هيبة السلطان فهم الساهرون ادا رقد الناس . المسقطون اذا باءوا ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ، ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين

كان الخليفة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه فيسير الى دار الحرب ليبحث فى العدو حتى يدعوه للطاعة لاشغل له الا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى واقامة ميزان عدله فيها

---

(١) حرف هده اللفظة حتى صارت (ترسخانة) وهى المعروفه

كبر على النخوة والمردة أن يوطىء عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم تطأ قبل من أيام أسلافه . وحدث انه كان للخليفة عبد الرحمن وزيرا اسمه (احمد) نقم عليه أمرا واتهمه بخيانة فقتله وكان لهذا الوزير أخ يدعى أمين بن اسحق من بنى اسحق أمراء الأندلس المروانيين (عمال الاندلس فى عهد بنى أمية وبنى مروان) فحقد ... اسحق على الخليفة وعصى فى مدينة (شنترين) سنة ٣٢٥ وأحدث بها ثورة عظيمة . ثم التجأ الى (رادمير) ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين وكانت بسببهم الواقعة المشهورة بواقعة (الخندق) ذهب فيها من عسكر المسلمين خمسون الفا أو يزيدون بخيانة هذا المارق ، والأعجب من ذلك أنه استامن الى الخليفه عبد الرحمن بعد أن تخلص من (رادمير) ووسعه حلمه وكرمه وقبله أحسن قبول

بعد هـــذا الحادث قعد الخليفة عبدالرحمن عن الغزو بنفسه وصار يردد الصوائف (١) فى كل سنة ثم جهز عسكرا مع عدة من قواده الى الجلالقة وكان له عدة حروب هلك فيها من الجلالقة خلق كثير

أنظر (لولا هذه العثرة) كيف يكون ملك الاندلس مع خليفة مثل هـذا جمع أشتات الفضائل حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ورفع منار العلوم والفنون وأدخل فى الاندلس مفاخر كل جهة وزينة كل بلد ، وانقاد له المغرب الاقصى ، وحث الناس على الأدب الدينى فاذ مسوا فيه فترقت نفوسهم وسمت الى مراقى الفلاح ، ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الامم وحياتها فبعث الأمة فى خلق جديد ؟

لطيفة له ـ أقصها عليك تعلم منها قدر احترامه للعلماء وقدر إعظام العلماء أنفسهم فى أيامه لما ذاقوه من لذة العلم وأحسوا به من شرفه) ـ اشتاق مرة للفقيه الامام أبى ابراهيم فطلبه وكان بالمسجد المنسوب لابى عثمان يسمع طلبته الحديث الشريف ، فبعث اليه الخليفة خادما يدعوه اليـه فلما جاءه وبلغه رسالة مولاه قال له السمع والطاعة ولا عجلة ارجع الى أمير المؤمنين واذكر له عنى انك وجدتنى فى بيت من بيوت الله مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمـه

---

(١) الصوائف جمع صائفة وهى غزوة الروم صيفا لقلة الثلج والبرد

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ماأنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضاء الله وطاعته فاذا انقضى مشيت اليه ان شاء الله . فمضى الخادم ولم يك الا ريثما أدى جوابه وعاد يقول : أنهيت الى أمير المؤمنين رسالتك فقال : جزاك الله خيرا عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين واذا أنت أوعيت فامض اليه وكان ذلك

فحبذا الحاكم والعالم هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون الذين زينوا وجه الدين وانصرفوا عن المحفخة الباطلة الى الصراط المستقيم ، وعلى فعلهم هذا بنى القائل قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

فمتى علماؤنا لهذا السر يفقهون وبهذا القليل يعطون

تهذبت فى أيامه الأمة بجمع مايؤثر عن أهل الاندلس من نوادرهم وحكاياتهم فى العدل ، والوفاء ، وحسن الاعتذار ، والقيام بحق الاخاء وعلو الهمه فى العلم والدنيا والذكاء ، واستنباط العلوم واستخراجها ، وحب العلم واللطف ، ورقة الاخلاق ، والقوة والشجاعة ، والملح وأجوبة الملوك والطرف والبلاغه وعدم احتمال الضيم والذل والانفة والجود والفضل وسرعة البديهية ، والعفو وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخل تحت عنوان مكارم الاخلاق جميعها . مما ذلك فى مدته فهو اما نادره أو غارسه أو منميه أو مستثمره رحمه الله

مضت أيام هذا الخليفة على الاندلس وكأنما هى خيال حالم . أو حديث نائم تولاها . ولم يكن فى بيت المال مايسد شيئاً من نفقات الجند وغيرها . ثم توفى فترك من الاموال المدخره شيئاً عظيما فضلا عن الـ ا[illegible] الكبير والمجد الباذخ حتى لقبه الافرنج بالكبير والعظيم

عمر مملكته بالعدل والاحسان فعمت البركه فيها وانفسحت نفوس الرعايا للسعى والاكتساب ، وابعد عن الطلامات المفسده للعمران من تكليفهم بالاعمال . وتسخيرهم بغير حق أو أخذ ماأيديهم بأبخس الأثمان . وقامت الدولة [illegible] عمرانها لأمان الناس على أموالهم وحرمهم ، ودمائهم و[illegible]

كانت الاندلس فى زمانه زاهية بالمعارف والعلوم ، زاهرة بالثورة والعى يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم . فأين كثرة الصناعـــة والتحارة والمعامل الحريرية والمصانع الغريبة وورش التطريز والوشى والنسج ؟ ومع هذاالكمال الذى لا يفضله الا الكمال الالهى فقد وجدت بعد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده يعدد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته فادا بها أربعة عشر يوما

نقب الكثير من طلاب الاخبار على هذا الأثر فما عثروا عليه ، وجال فى فهم الكثير مهم تأويل ذلك أواستنتاجه ، فذهبوا أيضا مذاهب شتى . والذى يدل على الخبر ان صح ان تلك الأيام التى عدها هى أوقات فراغه من أشغال الملك لان الملك بنى على المشاغل وهى لاتنتهى فادا تم للملك ما يريد وأمكنه ان يرصد لنفسه وقتايرى نفسه فيـه خاليا عن حاجات المنصب الذى أقامه الله فيهفتلك سعادة مافوقها سعادة ، وقد قال قوم غير دلك وكثر القول حتى ألف بعض الأجانب رسالة . فى تلك الايام ذهب فيهـا مـــذهب القصص و « الرومان » فاصعف هذا التخمين ذلك اليقين والله أعلم

وخير مافى المسئلة ان ينظر العاقل لهده الدنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها . هدا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ولم تصف له الا أربعة عشر يوما . فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لاإله الاهو ثم يستكثر فى أعماله من كل خير وبر فما الحياة الدنيا الامتاع الغرور

لاتغبط الاقوام يوماً على ما أكلوا خضما وما سربلوا
بذبل غصن العيش حقاً ولو أضحى ومن أوراقه يدبل

الحكم المستنصر بالله

هو الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر وولى عهده من بعده . اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام باعبائه أتم قيام ،

وأنفذ الكتب الى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده . وأول ما أخذ البيعة على أهل القصر ، ثم على اخوته وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم وجلس وجلست الناس للبيعة طبقة طبقة كما هو مفصل فى مواضعه . فلما تمت أذن للناس بالانفصال ثم أخذ هو واخوته فى تشييع جنازة الناصر لقصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء

وفدت عليه الوفود للبيعة والتماس المطالب وقدمت من أقاصى البلاد فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر رضى الله عنه فى سلوك سبيل القصد ، واتباع طريق الرشد واحتذاء حسن الاثر حتى قالوا ان الاندلس لم تفقد الا شخصه وصح عليه قول أبى الحسين فى ممدوحه أبى العسائر

يا بن ـــ من كلما بدوت بدالى عائب الشخص حاضر الاخلاق
لو تنكرت فى المكر عليهم حلفوا انك ابنـــه بالطلاق

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة وذوى الدين والورع والدعة . والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية ، والعلماء الجامعين للروايه والدراية . حتى ظهر فى عيون الاعداء والأصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية جمعت أفخر الآثار العظيمة والنعم الزائده من مماليك كأنها الأغصان ماشية على ظهور خيول صافنة كاملو الشكة والأسلحة يسحى بهم حلق العدو المناوى والخصم المنازل والسيوف والرماح والتراس والقلانس الهندية والدروع والخود المخلفة الأجناس . فكان لذلك مفتخر جليل ومحتفل حفل تضاعف به اغتباط قوة حرمة الملك واستطال به عماده على جميع المملكة

غزا بنفسه لاول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين ضيعوا ... الثغور واقتحم بلد (فردلند) وفتح (استبن) عنوة فبادروا الى عقد ... معه وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد (جليقية) ... الى مدينة سالم لدخول دار الحرب فجمع له الجلالقة واقتحموا ... العساكر لما

(هردلند) وغزا (شانجه بن رادمير) ملك البشكنس وقد ساعده ملك (الجلالقة فهزمهما وقصد بلاد برشلونه . وبلاد القومس وعظمت فتوحاته وظهرت همة قواده ومرابطى ثغوره فى كل ناحية وكان من أعظمها فتح (قلمريه) و(قطوبيه)

ثم دخلت سنة ٣٥٤ فابتنى حصن (عرماح) وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس (فى الاطلانطيق) وأفسدوا (اشبونه) (١) فناشبهم أهلها القتال فرجعوا الى مراكبهم وأمر الحاكم القواد بخروجوا لحفظ السواحل، وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الاسطول ، ونال منهم من كل جهه من السواحل

تم له ماأراد مع ملوك البشكنس وغيرهم وعاهد (لذريق) ، ووفدت عليه أمه بهدايا ملوكية عظيمة ووصلته ووصلها وحملها أحسن محمل وأجزل عطاءها

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوه ومكناسه ، فتوها فى أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بنى الخرز وبنى العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وفادتهم ، وأحسن منصرفهم ، واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وجلاهم الى الاسكندرية

أما خلاله الشخصية فقد كان آية فى الفضيلة . سمع من أجلاء وقته وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير ، وكان محباً للعلوم مكرما لاهلها جماعا للآثار الشريفة والاسفار الكريمة والكتب القيمة على اختلاف أنواعها ، فسبق من تقدمه وجمع مالم يجمعه أحد من الملوك قبله ، فأقام للعلم سوقا وجدد للعلماء شوقا ، وظهر بهذا المظهر فجلبت اليه بضائع الفضل من كل قطر وحسبك بخزانة جمعت من الأسفار مااقتضى لاستيفاء فهرستها (أربعة وأربعين جزءا) جمع مقدارا ضاقت خزائنه عنه ، وكان ذا غرام بها وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك واغراض الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمعت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والاخبار والانساب ثقة فيما ينقله ومن أشد ما يتعجب منه وقد اتفقت على روايته الرواة أنه قلما يوجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة فى أى فن) كان وعليه تعاريج بغرائب لا تكاد توجد الا عنده

---

(١) ليسبون قاعدة مملكة البورتوغال الان

أتحفه أبوه (الخليفة الناصر) بأحسن ما يتحف به والد ولده فقربه من العلماء وقرب العلماء منه ، ومكن بينه وبين كل وافد على الاندلس من المشرق من العلماء فكانت نفسه روحانية صرفاً . وفد أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى على الاندلس من بغداد ، فأكرم الناصر مثواه ، وأحسن منزلته وأعلى قدره واختصه بالحكم فأورث أبو على الاندلس علمه وأفاد الحكم بأحسن ما عنده

قويت عند الحكم رحمه الله مادة حب العلم حتى كان يبعث بالتجار الى الاقطار ومعهم الأموال لشراء الكتب واستجلاب المصنفات من الاقاليم والنواحى باذلا فيها ماأمكن من الأموال بمالا ينفقه غيره حتى جلب للاندلس مالم يعهده علماؤها . هذا كتاب الأغانى بعث فيه لأبى الفرج الاصفهانى مصنفه بألف دينار من الدهب العين فبعث اليه بنسخته قبل أن يخرجه الى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الابهرى فى شرحه لمختصر بن عبدالحكيم

جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده ولم تزل بقصر قرطبة حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم اليها عنوة ، ولا حول ولا قوة الا بالله

يطيش الانسان عندما يجد خليفة مثل هذا استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والمعزة والقوة فى الدين وجماعة المسلمين ، وعلا به كعب أمرائهم وسمعت نفوسهم بواسطة آدابه الى كل عمل شريف وأفاضوا بالتحدث فيه ، وكانت للخطباء والشعراء ميادين ومقامات يطول القول فى اخبارها و ... مجهولة عند كثير من الناس وعند ناشئة الشرق بأجمعهم ، فان سئلوا عن ملك عالم مثلا فأقرب ما يحدثونك به سيرة (كارلوس الاعظم) أو (لويس الرابع عشر) نعم انهما كانا فى تعضيد العلم وتشييد أركانه آنس ولكنهما ليسا بمفخر المسلمين أراد الافتخار ، وأولى به ان لم يحصر نفسه ودينه ووطنه وتاريخ ... حياة خلفاء الاسلام ، ففى ذلك من الجم الكثير ما يربو على ما علم ... حل فلا يكون مصداقا لقول الشاعر .

(كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى حناحا)

يصح أن تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الاندلس دات الدولة العظيمة والثروة الوافرة والمجد الباذخ ، لانه لما توفى الحكم رحمه الله فأول ماحدث أن قتل المغيرة أخوه وهو المرشح للحكم ، وولى بعده ابن الحكم هشام وكان صغيراً سنه تسع سنين ليتم لابن أبى عامر فى الدولة مايريد كما سيجىء تفصيله ان شاء الله . ثم ولى المهدى محمد بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة ثم انتهى الامر بسقوط الدعوة للخلافة الاموية واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى

كانت الدولة الأموية من أعظم الدول مكانا وأشرفها موقعا ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة وللأمةالعربية خاصة يكادالسامع بهالا يصدق بزوالها كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام زراعة متقنة وصناعة رائجة والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقواداً ، وأبطالا شداداً ، وفلاسفة مرشدين وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين ، وشعراء مصنفين ، وصناعا مهرة مبرزين فى فنون البناء والتصوير والنقش والتزيين لاتزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم ، وشهادة العدو المناوى أعدل شاهد

حجت اليه ملوك الأرض قاطبة يستشرفون معاليه باجلال
يصد مطمع من ناواه متئسا يعييه عن حدو تمثال تمثال

ولكن ماالحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة ، ونزول بلاء سوء الاخلاق ، وانقراض الدول وانحطاطها بيد أهلها . يحق للسائل أن يسأل أين ذهبت هذه العظمة وكيف وهى هذا الركن العظيم وماهو ذلك الشىء الجسيم الذى أدى لهذا الاضمحلال السريع فى الخلافة الاسلامية فى المغرب ؟ والظاهر أن السبب فى ظهور روح الشقاق والخروج على السلطان من الامة والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى والانتهاج لغيره ، ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبدالرحمن الاول (الداخل) عن البيعة وميله (لولاية العهد) فقد عهد بالخلافة

لمن بعده من ولده وخص بها (هشاما) الأول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبدالله وخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه فتغلب عليهما وعفا عنهما ، ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطلبا قسمة البلاد معه . ويقولون ان نار هذه الفتنة كانت مضطرمة ، ولكن قوة الحاكم القائم بالملك أوقفت الناس عند حدها زمنا وردتهم على أعقابهم عهدا . ثم لما انصرم هذا العصر حدث ماحدث وانه لو جرى المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء فان هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعاً كبيرا وحدثت كل نفسه فى خلوته بما حدث ، فكانوا يخفون أمرهم فى إبان القوة خوفا على مناصبهم ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد فى ظاهر الامر ويستعدون لنوال مقاصدهم سرا ويتربصون بالخلفاء الدوائر حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سراقسطه وطليطلة وحوسقة . ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها وأورثتها خبالا ووبالها وقويت الامراض حتى أضعفت جراح الدولة (وكذلك الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والضعف يخفيه) وفى الحقيقة ان منهاج الخلافة الشرعى ـ وهو جعل الحل والعقد والبت والفصل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة بحسب للأمة معالى الامور وهذه أيام الخلفاء الاربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك ، والعدول عن سنن هؤلاء الخلفاء يدفع بالامه الى السفاسف ، ويحط من مهابة صاحب السلطان ، ويخفض من شوكته ويستفحل فى عصره أمر الثوار والخارجين عليه ، لانهم يلحظون من ذلك انه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد وأهمل أمر الصنائع والزراعة . وان الامة أصبحت فى مدته اتباعاً لكل ناعق ، وان التربية القومية مفقوده بالمرة ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب اللذين هما من أهم ماجاء به الدين الحنيف الاسلامى ، فاذا وقع ذلك فليرتقب كل عناء وبلاء

ملوك الطوائف

هذا العنوان يصح أن يطلق على الملوك من أصحاب الأطراف الذين يملكون

تكل فى بلاده على أثر انقراض دولة قوية ، وهو حال يعرض لكل دولة متى أحطت حكامها وأمراؤها من شأنها ، وأضعفت من صولتها حتى علم العدو بمكانها من الضعف ، وأصبح أمر انحطاطها ظاهراً ، والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة ، وتأليف الأهواء المختلفة ، وكف الأكف العدية ، ورد جماح العزائم الفاسدة . يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى ، وجيد القريحة وسديد النظر ، وصحة اختيار الأحوال ، وحسن اختيار الرجال ، وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الاصول الشريفة ، وتتعلق بهذه الفصول الرفيعة . فاذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ، ولا مستقل بما قلد ، ولا نافذ الأمر فيما هو له أهل من الأمر والنهى ، ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده ، فهناك الانقسام وهناك ملوك الطوائف

ظهرت ملوك الطوائف على أثر انقراض (الدولة الرومانية) وقامت كذلك على أساس (الدولة الكيانية) فى بلاد الفرس بعد ان قتل « دارا » آخر ملوكها واستولى « الاسكندر » على مملكته ونهض بها فى المغرب أيضا أهل السوء الذين لا يميزون طالب الحق من منكره ، وجاحد الصدق من منتظره (حال احتلال الدولة الاموية) كانت ملوك الطوائف بالاندلس عقب انتثار عقد الخلافة الأموية ، وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها ، وما كان من خلع الخدلهشام اخر خلفائها واستبداد الامراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالاطراف واقتسامهم خططها وتغلب بعضهم على بعض واستقلال قوم على قوم واشتداد الفرقة بينهم وبلوغهم فى الجهل درجة أدت بهم الى التزلف لاعدائهم ملوك أسبانيا فيدفعون الجزية لهم (عن يدوهم صاغرون) صونا لملكهم (ساء ما يتوهمون) ويأنفون من ارتباطهم مع بعضهم وهم من عنصر واحد ودين واحد وملة واحدة

هدمت الدولة الاموية (بعد أن كانت أرفع الدول عماداً وأعظمها شأنا وأضخمها سلطانا وأكثرها جنودا وأمدها سلطة وأعلاها ذكرا وأبعدها اسما) بسبب سوء الخلال ، وفساد الطباع ، وخصال السوء ، ودناءة الاخلاق ،

وخبث السرائر والطباع التي خالطت القلوب بتغرير الدخلاء وحساد المفسدين من أعدائهم مازالوا بهم حتى أنسوهم خاصة وعامة مكارم الأخلاق ، فلا وفاء بعهد ولا أمانة ، فانقلبوا على بعضهم ، وجعلوا بأسهم بينهم ، وفشت كراهة الاموى للقرشي ، وتحول الأمر من المضرى الى اليمانى

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

تفرق ملوك الطوائف واقتسموا الاندلس فتجزأت بعد أن كانت مجتمعة وأصبح بأشبيلية وأعمالها (محمد بن عباد) وبيطليوس وأعمالها (محمد بن عبد الله المعروف بالافطس) وبطليطلة وأعمالها (ابن يعيش) وبسراقسطه وأعمالها (سليمان بن هود الجذامى) وبطرطوسه وأعمالها (لبيب العامرى) وببلنسيه وأعمالها (المنصور المعافرى) وبالسهلة وأعمالها (عبود بن رزين البربرى) وبدانيه وأعمالها (الموفق العامرى) وبمرسيه وأعمالها (بنو طاهر) وبالمرية وأعمالها (خيران العامرى) وبمالقه وأعمالها (بنو حمود) وبغرناطة وأعمالها (حبوس الصنهاجى)

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية ، وباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك (كأنها أحسنت صنعا ،)فأصبحوا طرفا فى الترف ، ونهاية فى الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الالقاب والنعوت ، وجعلوا لهم حجابا يتكلمون عنهم وهم وراء الستر . وصح عليهم قول (شارل مارتيل) حينما فزع اليه سكان فرنسا ليستشيروه فيما يفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ : امهلوا العرب حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا من المساكن ، ويتنافسوا فى ال[illegible] . ويستعين بعضهم على بعض ، وتفارقهم هذه الصفات التى تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ، ثم خذوهم بعضهم ،

أخذ ملك الاسلام فى الاندلس فى التضعضع ، وملوكه فى التفرق وحدث منهم ما أوجب علماء الأمه ، وأمناء الملة ان تفتى بجواز الحرب معهم لانحرافهم عن الاستقامة ، ومساعدة بعضهم للأسبانيول . وظهر فى اثناء ذلك [illegible]

النصر والاعانة ، ثم طال به العهد لاشتغال يوسف بن تاشفين بالفتح ، فذهب اليه والتقى به وكان ماكان من دخوله الاندلس وحربه مع الفونس السادس ملك قشتالة فى واقعة من أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالاندلس ، ووفقه لامتلاك بعض البلاد ، ونفوذ الكلمة فى المغرب ، ضابطاً لمصالح مملكته ، مؤثراً لأهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم حتى ان الامام الغزالى رضى الله عنه لما سمع بسيرته عزم على لقائه ولكن الموت حال بينهما

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده ، ولم يكن فيهم من أهل الحوطة والصون ما يكفى لتنكيل أعداء الله ، والدولة طائحة فى هوة الهلاك ، فانقرضوا فى سنة ٥٤٢ ، وقامت دولة بنى الأحمر وهى آخر الدول الاسلامية فى بلاد الاندلس . ومنها استرجع الاسبانيول ماكان بأيدى المسلمين ، وبهم انقرضت الدولة الاسلامية من اسبانيا . لابأس بأن نلم بعض الالمام بشىء من الاسباب الظاهرة التى كانت سبباً لهذا التفرق والانقسام آل الحكم الى هشام بن الحكم وهو صبى صغير لايتجاوز عمره تسع سنين مضعف عاجز عن القيام بالملك فقام به كافله من وراء أبيه (أبو عامر) فحجب الصبى عن الناس ، واستبد بالملك ، واستحكمت له صبغة الرئاسة ، وتحول الملك اليه ، وآثر به عشيرته وأبناءه ، وسما به أمل التغلب ففكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقطع بعضهم ببعض ، وصار كأعظم مايكون ملكا وسلطانا

هلك والخلفاء من بعده ملعبة لاعب ، لانه جدد فى الاذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية ، وحمل الخلفاء على القناعة بالأبهة واللذات وأنساهم عهد الرجولية ، فقامت الناس من بعده فخلعوا هشاماً وقتلوا ابنه ، ثم ولوا الحكومة عبدالرحمن المرتضى ثم قتلوه وهكذا المستظهر والمستكفى ، ثم خلعوا هشاما وأمية ابن عبدالرحمن الذى انتهت به الخلفاء فى الاندلس وعدتهم ستة عشر خليفة فى مائتين وأربع وثمانين سنة

تدمع عين القارىء من شؤم ماجرى فى هذه البلاد ، وسوء ماوقع بها أثر ماصحكت سنه وانشرح صدره سروراً بدخول طارق بن زياد أولا وموسى

ابن نصير ثانيا ، وما شيدا فيها من دعائم المجد واعلام الهدى

ان حزنا فى ساعة الفرقة اضعاف سرور فى ساعة الميلاد

قاتل الله الجهل والشقاق ، أباد هذه المملكة بعد ان كانت مجتمع أعلام الانام ، ومقر سرير الخلافة ، ومركز الكرماء ، ومعدن العلماء فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالا بحال ، وفتحا بفتح لينكشف له ماحدث وليتحقق ماجرى

قامت دولة بنى الأحمر المنسوبين الى سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج ونيران الدسائس مشتعلة بيد الأعداء ، وقد كثر أمر الثوار ، ومازال الفشل مستمرا بين العدو مرة وبين المسلمين وبعضهم أخرى ، والقائمون بالأمر بعضهم يقتل وبعضهم يخلع ، والمدن والقرى فى فتن وخطوب يطول شرحها ، والبلاد تنقص من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدى اليه الشقاق حتى لم يبق لبنى الأحمر الا غرناطة وأعمالها . فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتاله واراغون تمده (أوروبا) فلم يكن مهم الا انهم أفسدوا الزرع ، وقطعوا الاشجار ، وهدموا القرى وشددوا الحصار على المسلمين الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل المطعوم والطاعم واشتد الغلاء وعظم البلاء ، فلم يكن من أهل العلم والوجاهة الا ملاقاة السلطان أبى عبد الله فاجتمع الناس اليه ورأوا أن ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى . واتفقوا على شروط عقدت ثم قرئت ووافقوا عليها وكتبت بها البيعة . ونزل السلطان من غرناطة عن كرسيه ، ولا حول ولا قوة الا بالله

اشتملت هذه الشروط على سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال وإقامة الشريعة على ما كانت عليه فلا يحكم على أحد إلا بشريعته ولا يولى على المسلمين نصرانى ولا يهودى وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يجبر أحد على ترك دينه ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل عما هو قائم به الى آخر ماهو مدون بها من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين

وافق كلهم على هذه الشروط حتى صاحب رومه ووضع خط يده امضاء

ولكن الاسبانيول لم يراعوها الا ريثما تقدموا فى الأمر وتمكنت قدمهم وعلموا أن لا ناصر للمسلمين من ظلمهم فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهادات خصوصاً لما تشكلت المحكمة المعروفة بمحكمة (التحرى القسيسى) (انكيزسيون) فكان لها من القسوة مايخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية

أنشئت هذه المحاكم بأمر الباباوات (مصدر الرحمة والاحسان) خدمة للدين فى ظاهر الأمر ولكنها سياسية باطناً . فأتى الاسبانيول أعمالا بربرية وحشية فاحرقوا الزرع وهدموا الدور وغيروا وبدلوا بالمعالم الثابتة والآثار الجميلة ظلما وعدوانا ، فاذا آثار المسلمين بتلك الاطراف بائدة لم يبق منها الا ما يصح عليه قول القائل :

كاد الليالى وكادته مجالدة واكف عاديهما من بعد تقتال
ثم انثنت وبها من ... حرق وان كسته لكيد ثوب أسمال

كلت يد الاعداء عن إبادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ، ففيه للآن بقية يندهش منها الانسان تدل على المعارف والفنون التى كانت فى تلك البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر والمبانى والمدن والدساكر وعجائب الرسوم ودقة النقوش واحكام البناء ان أهلها بلغوا النهاية من الارتقاء والغاية من مدارج العلاء وتنذر الناس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخة ، ويحط الى حضيض الثرى اذا كان العلم يرفعها للثريا

لايستطيع انسان أن يجحد حسن حال اسبانيا فى عصر الدول الاسلامية لأن مؤرخى الغرب اتفقوا مع مؤرخى العرب على ان الاندلس كانت فى مدة الدول الاسلامية فى رواج عظيم ، وأنها اشتهرت فى خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهارا لم يكن لها من قبل ولا أتى لها من بعد ، لاعتنائه بالمعارف وانشائه المدارس وتنشيطه الصنائع وتوسيعه دائرة الصناعة ، حتى ذاع صيتها وتقاطرت اليها الطلاب من كل البلاد وسادت على العالم وقد اعتمدنا فى هذه العبارة الصغيرة التى يؤخذ منها ما كانت عليه وما صارت اليه من

دائرة المعارف فى الكلام على نقطة أسبانيا صحيفة ٧٧٣ [illegible] منهم
بأنها تستقى وتستمد فى نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية قال المؤلف :
(ان الصاعة فى أسبانيا كانت ذات رواج عظيم فى القرون الماضية واشتهرت
بها فى القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة فى اشبيلية
وغرناطه وبياسه والأجواخ المصنوعة فى مرسيلية والاسلحة المصنوعة فى
طليطلة غير أن جلاء اليهود والعرب من اسبانيا وحصر حقوق البيع و[illegible]
بمصنوعات معامل الحكومة والرسومات العظيمة التى جعلتها الحكومة
مصنوعات المعامل الخصوصية التى كانت تتضاعف بطمع مأمورى الرسوم
سببت سقوط الصناعة فى أسبانيا)
كان فى اشبيلية فى القدم ١٦ ألف محل لصناعه الحرير فعلتها ١٣٠
شخص ولحد سنة ١٦٧٣ لم يبق منها سوى ٤٠٥ محلات . وكان فى شمويه
معامل يخرج منها سنويا ٢٥ ألف شفه من الحرير وفى سنة ١٧٨٨ لم يخرج
منها الا ٤٠٠ شقه فقط اه

وعلى هذا القدر نقاس . والواقف على تواريخ أسبانيا علم ما كان لليهود
فيها من سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والاسلام . وان الكثيرين
منهم كانوا يتقنون العلوم العربية أى اتقان . ولم يقل أحد بأن العرب
اذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الاسبانيولية ،
بل وقع الأمر على العكس ، فان المؤرخين على اجماع بأن أعظم الأسباب التى
سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى هذه البلاد ضد العرب
هى ان الدول الاسلاميه حفظت لهم استقلالهم . فلم يعسر عليهم ان يكونوا
مملكة بعد . ومن هذا أيضا مافعلته الدولة العلية العثمانية مع بعضها من غير المسلمين
فى الروملى وغيره حفظت لهم كنائسهم فضلا عن استقلالهم ، فلما ثاروا بالخروج
عليها باغراء الدول لم يجدوا مايعوقهم عن العمل لغرضهم ، لانهم مجتمعون متحدون

تم طبع الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام

﴿ فهرست الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام ﴾

صحيفة

صحيفة

تم فهرست الجزء الثانى من كتاب حماة الاسلام
والحمد لله أولا وآخرا